المدرسة المصرية فى الفن والحياة

مصر والقرن الواحد والعشرون

حامد سعيد

المدرسة المصرية فى الفن والحياة

مصر والقرن الواحد والعشرون

حامد سعيد

المدرسة المصرية فى الفن والحياة

مصر والقرن الواحد والعشرون

حامد سعيد

أحاديث أعدها للنشر إحسان خليل

راجعتها د. علياء رافع

إهداء

إلى السيد رئيس الجمهورية
وكل من يهمه أمر بناء الإنسان المصرى
أصيلا ومعاصرا

الفصل الأول

المدخـــــل

١. الطــريـــق

الأمــل لكل نشاطاتنا التى بدأت من البداية – إذ كنا من مواليد ١٩٠٨ ونشأنا وأسماعــنا تمتلىء يوميا بذكرى حركات التحرير من أجل أن تعيش مصر حرة – أن تعــاود مصر عطاءها من جديد بعد أن تتخلص من التبعية: سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية ومعنوية.

أولى الخطوات على الطريق هو الإتقان فى بناء الإنسان المصرى أصيلا ومعاصرا. وقد وصفنا خطوات تحقيق هذا فى مطبوعات صدرت بالفعل:

أولاها: الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية.

الثانى: بناء الإنسان والتعليم.

الثالث: بناء الإنسان والطفل.

الرابع: بناء الإنسان والبيت.

الخامس: نحو الإتقان فى بناء الإنسان.

وقــد تناولنا هذه القضية من زاوية إنسان مصرى معاصر يعتز ببشريته ومصريته وبالعصر الذى نعيش فيه.. ووظيفته التربية وفن التشكيل: معلما للعلوم، وعاشقا للفنون وعلى قمتها فن الحياة السوية.

ثانى هذه الخطوات هو الوعى الأساسى المطلوب للإنسان المصرى أيا كان معلما أو متعــلما.. عــاملا أو مخططــا.. مشــرعا أو منفذا.. هذا الوعى هو فقه معنى

الشخصية المصرية.

وقـــد رأينا أن إدراك هذا الموضوع يعتمد بالدرجة الأولى على تنصيع رؤية معنى مصر، والشخصية المصرية رأى البصر والبصيرة. وقدمنا لذلك:

الفكرة المصرية فى الفن.

الفن فى مصر عبر العصور الشخصية المتميزة.

أساسيات الشخصية المصرية.

الشخصية المصرية.

الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها.

الفن المعاصر فى مصر.

معنى مصر.

الفنون الإسلامية والقرن الواحد والعشرون ...... الخ

أمـــا ثالث هذه الخطوات وأساسها جميعا فهو وحدة الفكر والفعل؛ إذ أن الأمور قـــد ســـارت وفق هذا النهج السليم بتوفيق من الله.. وهو الوعى بفلسفة العمل المصرى؛ تلك الفلسفة التى لا يستقل فيها الذهن عن ما هو فوق الذهن، ويتولى مـــا يـــتحقق بـــالفعل، توجيه الذهن ويتولى تحليل الذهن، توضيح استدرار ثمار الإبتهال، الأمر الذى يجعل من العمل صلاة بالفعل وليس مجرد شعار منفصل.

هـــذه الفلســـفة الحياتية غير الفلسفة المكتوبة. هى فلسفة معاشة جوهرها محاولة التوحد بين أحسن المثل التى تحققت عبر العصور، وما يحاول الفعل تحقيقه، وبين هـــذا وما هو مرصود من حكمة فى صنع الله الذى أتقن كل شىء. هذه الفلسفة هى التى يشير إليها اسم أصدقاء الفن والحياة: أى توخى صداقة الصدق فى الفن وفى الحيـــاة، ومحاولة الانتقال من صدق إلى صدق أصدق تطلعا إلى الارتفاع من الحسن إلى الأحسن، ومن الأحسن إلى ما هو أحسن منه.

وهذا هو سر ما يشير إليه تعبير العشق الإلهى.

إن سـر سـحر الآثـار المصرية القديمة، وسر سحر الآثار المصرية من العصور الوسيطة هو هذا العشق الإلهي وهو سر هذا الاتقان المذهل فى روائع تلك الآثار: أى ما تبقى من أعمال تلك العصور.
عشـق الحسـن والإتقـان الذى يتجلى فى الدقيق والجليل من صنع الله وصنع الإنسان بتوفيق من الله.
هـذه الفسـلفة الحياتية هى جوهر الفلسفة المصرية، وهى دستور أصدقاء الفن والحيـاة، وتتجـلى فى الناجح من أعمالهم بقدر حظها من التوفيق. الممتاز من محـاولات أصدقاء الفن والحياة سند وبيان: ما تحقق ويتحقق من خطوات على الطريق نحو تحقيق الأمل المرجو من استعادة البلاد حريتها؛ أى فرصة تحقيق حياتها بممارسة العطاء من جديد.

أعمال أصدقاء الفن والحياة شرح وبرهان ودليل. ولهذا كانت هذه الأعمال ذاتها بمثابة توضيح عملى لهذه الفلسفة يقوم فيها كل بالأخذ والعطاء.

وقـد كانت بذرة هذه الصداقة فى المحاولة الجماعية الأولى فى الأربعينات خلال الدراسـات الخاصة فى الثقافة الفنية حيث كانت أعمال الزملاء توضيح وتدعيم وإضـافة إلى اسـتيعاب الرؤية وممارسة كيفية العمل وكانت النتائج شاهد قائم ودعوة إلى جديد مأمول.

كمـا كانت أعمال البحوث الفنية نقلة جديدة بالدعوة إلى مستوى الربط بين الفن والواقع المعاش.

وكمـا كـانت أعمال أصدقاء الفن والحياة متابعة وتنمية وتعميقا لوحدة الفن والحياة.

وأخيرا كانت بيوت الفن والحياة هى الركن الرابع فى توصيف كيفية التحقيق.

وهـذه الأعمـال يكمل بعضها بعضا وهى تدعو إلى مزيد من أعمال يقوم بها

آخرون من أجيال قادمة تؤمن بالأمل وتعمل على التحقيق.

عندما أنشئ هذا البيت الأول من بيوت الفن والحياة كانت الحرب العالمية الثانية قائمة على قدم وساق. كانت ذروة الحضارة المعاصرة من الأمم فى حرب شاملة مدمـــرة. كـــانت زهرة كل ذلك التقدم فى الصناعة والعلوم خرابا زاحفا ويأسا قاتلا وإعلانا صريحا بإفلاس القيم الإنسانية وعجز صدر موجة الحضارة أن تعيش الحضارة.

وكـــانت الحيـــاة خارج نطاق الإنسان كما نراها، فياضة زاخرة كعهدها مليئة بعـــنفوان الوجود ورقة الأمل ورهبة الظلام وإشراق النور. كانت الحياة الشاملة كعهدها مفعمة بالقداسة والمعنى. وكانت الحرب الشاملة طافحة باللاحب المدعم بجـــبروت الصـــناعة وإحكام العلم وضلال الحكمة. كانت الحرب العالمية الثانية شهادة دامغة بجاهلية العصر رغم العلم والقوة والثراء العريض.

وكان هذا هو منطلق الدراسة الخاصة فى الثقافة الفنية فى الأربعينات والتى دعمت البحوث الفنية ومن بعدها أصدقاء الفن والحياة وبيوت الفن والحياة بأملها البعيد المجيد بإذن الله.

٢. أزمة العصر والأمل المرجو

نحن نعتقد أن العصر أدرك أشياء كثيرة وغابت عن العصر الحكمة ومعنى الحياة: أدرك العصـــر كيف يتعاطف مع منطق الحدوث فى ظاهريات الوجود وغفل عن مـــنطق الحدوث فى ما يضفى القيمة والمعنى فى الحياة.. أسكره ما كشف من قوة يمكـــن أن يحقق بها أغراضه.. وغفل عن ترشيد هذه الأغراض. أصبح عملاقا فى الجـــبروت.. وجاهـــليا فى الأغراض. وما يحدث كل يوم وكل ساعة فيه الدليل الرهيب.

لا يحـــتاج الأمر إلى عمق فى التفكير.. ولكن يحتاج الأمر إلى إفاقة: هل ما يحدث اليـــوم باسم الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. وما يقال ويدعى عن حقوق الإنسان.. هل هذا كله فى حاجة إلى تبيين؟ إنه الجاهلية بعينها، والبربرية بذاتها.
هـــل ما يفعله الإنسان المتقدم المعاصر اليوم يبرر أى تقدير واحترام لهذا التقدم؟ وإلى أيـــن يقودنا السادة أصحاب الأمر فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن؟ وإلى أين يقودون أنفسهم؟

لابـــد أن تفيق الشعوب ذات المجد الحضارى.. والتى أدركت من القيم الإنسانية التى تشكل جوهر الحضارة ومعانى الإيمان وسعادة الإنسان الحقيقية وسمات الحرية المعنوية لابد أن يعى أصحاب الرأى فى هذه الشعوب أن عليهم دورا مطلوبا هم عنه غافلون.
عليهم أن يدركوا مسئولياتهم تجاه ماضيهم وحاضرهم ومستقبل الإنسانية جمعاء.

٣. أهمية الجذور

لقـــد إنخلعـــنا من جذورنا الثقافية، ونحن أصحاب أعمق تجربة حضارية كان لها ريادة فى العصور القديمة، وريادة فى العصور الوسيطة. و لم يتوقف فيها الاجتهاد الحضارى. بل إن الوسيط أخذ بيد إيجابيات القديم ونماها جوهريا وسما بها.

ولكننا اليوم نعيش بطن موجة حضارية، ونتسم بتبعية ثقافية سقيمة. وهذه التبعية تبدو أوضح ما يكون فى كل نشاط تشكيلى للبلاد، من العمائر إلى الصناعة إلى شتى فنوننا التشكيلية.

ويشـــهد تراثنا فى شقيه القديم والوسيط ببلاغة تشكيلية، بينما نعاصر فى بلادنا اليوم فقرا تشكيليا أوضح ما يكون لكل ذى عينين ووعى تشكيلى.

وقـــد كان لنا فى عصورنا القديمة والوسيطة سمت واضح بيِّن سمته الرائعة الإيمان والإتقان، بينما سمة إنتاجنا اليوم سطحية الإيمان ونسيان الإتقان، بينما سمة إنتاجنا اليوم سطحية الإيمان ونسيان الإتقان.

كـــان لـــنا جبهة ثقافية قوية، وكنا فى قلب تلك الجبهة، وأصبحنا شيعا وأفرادا متدابرين وليس لنا سمت أو كيان متميز.. نحن نتلعثم ثقافيا.

يحـــدث هـــذا بيـــنما الوضـــع الراهن فى العالم يفرض على البلاد ذات التاريخ الحضارى أن تفيق وتستعيد الوعى برصيدها المعنوى وتنفض عن كياها ذل التبعية وتستعيد وعيها لعلها تسهم فى خلاص العالم من الأزمة الثقافية الطاحنة التى يعانى

منها العصر.

إن الشق المتقدم علميا وتكنولوجيا يمر فى بطن موجة معنوية على وشك أن تقود العـــالم إلى كارثة محققة: يفقد العالم المتقدم علميا وتكنولوجيا أى إيمان روحى، وأى مقيـــاس خـــلقى، ولديـــه أســـلحة الدمار الشامل ما يكفى ويزيد أضعافا مضاعفة.

لهـــذا ندعـــو إلى التنـــبه لأهمية الجذور: جذور الحضارة وخطر القشور: قشور الحضارة..
ولأهميـــة الدراسة المتعمقة للعصر والإفاقة من إغماءة الانبهار بالحضارة المعاصرة التى فقدت مبررات القيادة والريادة.

وهى رغم هذا كله قد زودت وتزود من يريد أن يتلمس طريق الخلاص بالكثير مـــن أســـباب الوعى المدرك والفعل الرشيد بفضل العالمية والعلم وشعار الحرية الرنان وحقوق الإنسان المدعاة.

٤. بيت الفن والحياة

هذا البيت هو آخر مرحلة من رحلة حياة
بدأت فى مطلع القرن العشرين.

وكان هدف هذه الرحلة وأملها الإسهام فى

أن تتحقق لمصر الحرية والحياة السوية

وقد شارفت الرحلة نهايتها.

والأمل أن تتابع أجيال الباحثين غايتها

بيت الفن والحياة

١ـ البيت

البيت بذرة الحضارة.. والعالم كبيت هدف الحضارة.
ولكن ما هو البيت؟ الجواب الظاهر والطبيعى، أن البيت هو السكن
ولكن ما معنى السكن؟ وكيف يسكن الإنسان؟
والجواب الظاهر والسطحى، عندما يتوفر البناء.

هكذا يمكن أن تتسلسل الأسئلة والأجوبة عن معنى البناء.. وهل لابد للسكن من بناء؟
لقد عشت فى خيمة فى هذا المكان ..
وعشت فى مركب صغير فى أسوان ..
كما عشت فى بيت من بيوت القاهرة عظيم.
ولقد توفر لى السكن ومعنى البيت فى كل من هذه الحالات الثلاث على حد سواء.. ذلك أن معنى البيت الأساسى كان متوفرا.

معنى البيت الأساسى على هذه الأرض: أرض هذا البيت، أو أرض مصر بمعناها القيمى هو تزاوج المؤنث والمذكر فى وحدة، كما يتزاوج الأكسجين والايدروجين فى وحدة الماء، إذ يتبدل كل منهما بعد الوحدة فى وحدة جديدة هى البيت.
هذا المفهوم للتزاوج مفهوم أساسى.

وفى هـــذه الوحـــدة لا يفقـــد كل من الذكر والأنثى خصوصياهما، بل تتألق خصوصـــية كـــلّ عن ما كانت عليه من قبل: إذ يتكامل كل منهما فى حد ذاته ويتكاملان سويا فى وحدة واحدة.

هذه الوحدة الواحدة لعنصرين متكاملين

هى معنى البيت.

ليس هناك تضاد بين الجنسين "خلقكم من نفس واحدة" بل هناك تكامل: إذ أن الإنســـان ليس رجلا عل حدة، أو امرأة على حدة بل هو رجل وامرأة وطفل.. "وبث منهما شعوبا وقبائل لتعارفوا"

"إن أفضلكم عند الله أتقاكم"
ولكن ما هو الفضل؟ ما هى التقوى؟
أى ما هو الخير؟ وما هو الحق؟
الحـــق المطلق هو الله سبحانه وتعالى.. والفضل والتقوى هما الإتصاف والعمل بما يرضى الله.

وهكـــذا تتفـــتح أمامنا الأسئلة، والأسئلة أبواب المعرفة. وقد عرفنا مبدئيا معنى البيت. فما هو الذكر وما هى الأنثى؟ وما هو السر فى التعدد شعوبا وقبائل؟ وما هـــى المعـــرفة؟ ومـــا هو الطريق السوى إلى الله؟ وكيف نعرف الله لنصبح من العارفين به؟

كـــل هذه الأسئلة أبواب المعرفة.. مدرستها الأولى هى البيت. وبيت الفن والحياة - بيـــت الصـــدق فى الفن والصدق فى الحياة - هو نموذج لكى يكون كل بيت بيتا للفن والحياة.. وأن تكون لكل بيت خصوصية مشتقة من خصوصية أصحابه.

وخصوصـــية أصـــحاب هـــذا البيت أهم كرسوا حياهم لفقه معنى البيت بذرة الحضـــارة وأن العـــالم كبيت غاية الحضارة. لحمة وسداة هذا البيت ألفة ومودة

وعمل صالح يخدم الناس ويرضى عنه الله.
ولكى يتحقق هذا الهدف كان هذا البيت فى مبناه غاية فى البساطة
وفى معناه نتغيى الغاية المتغياة
عندما تستقيم الحياة.

واستقر هذا البيت تحت السماء وفوق الأرض، تحف به وتحنو عليه وتظلله وتتوحد معه الطبيعة. ويتوحد معها فى الوحدة الشاملة للحياة: تلك الوحدة صنع الله الذى أحسن وأتقن كل شئ.
وكل ما فيه من حطام هذه الحياة الدنيا هو الحد الأدنى من الضرورى المادى، ويتفق مع الذوق البشرى السوى السليم.

أما ما فيه من غير هذا الحطام فأعمال تدعو إلى التوحد مع الوحدة الشاملة أمل ابتغاء وجه الله الذى ليس كمثله شئ فى الأرض ولا فى السماء: أعمال تشرح معنى العلم: علم الدنيا وعلم الدين.. وأعمال هى جهاد فى سبيل العلم النافع: الطريق إلى بناء الإنسان السوى الآمن والأمين.

إنه بناء من تراب وماء.. بناء من طين لم تمسسه نار. إذا اندثر عاد إلى الأرض الأم. يشترك معها فى بناء الحياة.

هذا البناء البسيط تمتد جذوره إلى بدء استقرار الإنسان على الأرض.. قام مع اكتشاف الزراعة أم العمارة والحضارة وحدته قالب الطوب الأخضر: طين تهندس وتأنس..
ارتفع قائما وتعانق حانيا
وكوَّن كونا هو صورة مصغرة من الكون:
جهات أربع ترتفع فوقها السماء..
أم حانية وحامية تحيط بالإنسان
وتضمه فى رحابها ليستقر ويسكن..
ليسعى متعاطفا مع الكون الأم الكبرى.

بيت الفن والحياة

ب – الحديقة رمز للطبيعة

أدرك العلم الحديث وحدة الحياة، ولكنه لم يهتم بتأكيد هذه الوحدة. لا يقوم العلم إلا على أساس إيمان بوحدة الحياة ومع ذلك لا نسمع عن وحدة الحياة الكثير فى هذا العصر الذى أنجز فى العلوم أكثر مما أنجز فى أى عصر آخر.

والسر فى ذلك أنه عصر يتجنب الإيمان بالله. ذلك أن وحدة الحياة هى شهادة التوحيد. ويقول النص القرآنى للنبى عن مثل هذا الوضع "ولو أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيدهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين". الأنعام.

وكتاب الكون مرئى وملموس ومحسوس. ويكشف العلم من خفاياه ما يدعو إلى تأمل حكمة الله.. ولكنهم لا يريدون أن يؤمنوا.

وهذا المكان من الأرض بلد إيمان من قديم آمن بالله واليوم الآخر والميزان والحساب والثواب والعقاب. وما زال هذا البلد مؤمنا إلى يومنا هذا.

ولكن الإيمان إذا لم يتجدد يتجمد وهذه هى حكمة الذكر: "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار".

ولكن العصر لا يذكر الذكر ولا يمارس التفكر لأنه ينشد الجبروت من العلم. لا ينشد الحكمة ولكن ينشد الثروة. لهذا حُرم العصر رغم ما أوتيه من علم حُرم الإيمان.

ونحن فى هذا البلد المؤمن والمجاهد فى سبيل حريته والذى حقق منها الكثير ما زال هــذا البــلد المؤمن القديم يعانى من تبعية ثقافية سطحية لأصحاب القوة والثروة والجبروت.

ولهــذا وجــب التنــبيه إلى أهمية التحرير الثقافى والمعنوى. لهذا لزم إعادة بنيان الإنسان المصرى الأصيل المعاصر المؤمن

الإنسان غير السطحى غير المتجمد

الإنسان الحى بمعنى الدرّاك الفعّال.

وأول خطــوات الـــتحرر تدعـــيم أساس الإيمان: الإيمان بالتوحيد جوهر حرية الإنســـان.. والتفكر فى خلق السماوات والأرض.. فى هذا الكتاب صنع الله بادئ ذى بدء ليتجدد الإيمان ولا يتبلد أو يتجمد.

ويدعـــو القـــرآن إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة. والحكمة المتاحة فى هذا العصـــر ربمــا لم يتح مثلها فى عصر من قبل وذلك بفضل ما تحقق فيه من علم وتقنية وبحث فى منجزات العصور السابقة.. كل العصور.

وعالم النبات هو الصلة بين ما نسميه الجماد وشتى صور الوجود التى نسميها الحياة.

والحقيقـــة الأساســـية التى ينبغى أن لا نغفل عنها أن الطبيعة كلها كل واحد متصل.
والعلم الحديث شاهد معاصر على هذه الحقيقة الأساسية رغم أن العصر غافل عنها.
ومنجزات العصور العظيمة السابقة تنبض بها فى فنونها ولكن هذه الفنون – فنون الحضارات الكبرى والتى لم يعن بجمعها والحفاظ عليها عصر كما احتفل بها هذا العصر – لم يسبر غورها بعد لنرجسية الجبهة الرائدة.. ولتبعية التابعين.
ما زالت ثقافة الغطرسة سائدة.
وفى حديقـــة هـــذا البيت لم يحاول الإنسان أن يطغى على الطبيعة بل حاول أن يـــتوحد معهـــا وأن يتتلمذ عليها.. لأنه أدرك أن ملايين وبلايين المتعدد تشير إلى

الواحد، وأن هذه المتعددات إشارات مكتوبة بلغة سرمدية واحدة لم يتفتح لها بعد الوعى المعاصر رغم ما أتاحه العصر من تعرف على شتى المنجزات البشرية المرموقة. وما كشف عنه العصر من مكامن الخلق الكونى.

ما زالت لغة الشكل المرئى الملموس لم يتعرف عليها الوعى إلا قليلا. وهى فى أهميتها لا تقل عن أهمية اللغة المنطوقة.

إن التفكر فى خلق السماوات والأرض ليس محدودا بحدود الكلمة المتعارف عليها، بل إن لغة الشكل الكونية السرمدية والتى يخاطب الله الناس بها إذا حدّوا من علوائهم ونرجسيتهم وغطرستهم، وانشرحت صدورهم، تُسر إليهم بما قد يعجز عن بيانه البيان اللسانى.

"وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم".

تسالم النبات همزة الوصل بين ما نسميه الجماد وما نسميه الحياة عالم قادر على تنبيه الغافل بفضل ما فيه من فضل:
من إيحاء بالسلام.. من بهجة وعطاء
من صبر وصمت.. من عمل مستمر بلا ضجيج
عمل بنّاء لا هدم فيه ولا عدوان

الشجرة.. بل الورقة أو الزهرة أو الثمرة أو الساق والجذر والفرع تذكرة لو تناولها التفكر الذى يجمع بين العلم الجامع للداخل والخارج.. لعطاء الذهن وعطاء الوجدان والمستخلص للحكمة حيث توجد الحكمة فى صنع الله أو صنع المهتدين المحسنين من البشر تادرة على رد المرتد.. على إحياء الذكر فى قلب الإنسان.

الحديقة جنة صغيرة ينعم فيها القلب بالقرب من الله.
هكذا عاش أصحاب هذا المكان فى هذه الرحاب شاكرين أنعم الله بالعمل يغذيه التفكر..

وبالتفكر يغذيه العمل الذى يتغيى بناء الإنسان مهما اختلف المكان أو الزمان أو اللسان.
وكذلــك فعل هذا البلد عبر عصوره عن طريق لغة الشكل السرمدية: فى آثاره القائمة، ما يدعو الغافل إلى ذكر الله.

"عــندما يــتم التوحد بين الإنسان والطبيعة يشعر بها امتدادا له وأنه مركز من مراكزها. لا يبدو أى شئ نعنى نتأمله بكل كياننا غريبا أو أجنبيا عنا، بل يتجدد الكل من حولنا.. ويتحدث إلينا.

عــندما نبصــر لا تعمل العين مستقلة وحدها؛ عقلنا وقلبنا وكل حواسنا تسهم وتضيف.
لا يوجد ما لا حياة فيه لأن ما نسميه الجماد معمور بالروح التامل وإن إدراكنا لشمولية هذا الروح علامة تحقق عملية الإبصار.
وإن أقصى ما يمكن للخيال أن يحيط به هو رؤية الحق".

كان هذا الكلام من مقدمة قدمنا بها أعمالنا للعالم الغربى فى بداية الخمسينات
وكان أول ما قدمناه فى آخر الأربعينات قد جاء فيه:
"إنه لسعادة أن يرى الإنسان الكون كله وبكل ما فيه من تنويعات وحدة واحدة.. أن يرى الإنسان ويبصر مدركا حضور الكل فى الجزء.. أن يرى ذات النمط، ذات الأسلوب فى كل شئ.. أن يرى الحضرة المقدسة ينبجس إشعاعها من كل شئ".

جــاءت هــذه الكــلمات فى كراسة تحوى صورا من أعمالنا وقبسات بالعربية والإنجــليزية. لم تكن مترجمات ولكنها كلها كانت تشير إلى وحدة العلاقة المثلى بين قلب الإنسان والكون: علاقة الحب المثلى.

أما أول ما قدمنا به أعمالنا فى مصر فقد جاء فيه:
"ونحــن إذ نتأمل بواقى الفن المصرى فى المتحف المصرى نتعرف؛ مضاء العزم..

وهـــدوء الإيمـــان.. ونقاء الشكل.. وتجلى الحق فى الخلق.. ومعنى الخلود.. ونظرة الصـــقر.. وقســـوة الحجر.. وطلعة الأسد.. ورقة الزهر.. ودقة ابن آوى.. ونعومة الثعـــبان.. وغرابة الحيوان.. وحنو الأنوثة.. وشمس الرجولة.. وقوة القرن.. وخفة الـــريش.. ورفـــق الجناح.. وثقل الجبل.. وأناقة الطير، وغير هذا من الصفات التى تتشـــعب وتختـــلف وتتضاد، ولكنها تتقابل فى القطعة الفنية الواحدة فى حلول ســـعيدة، موفقـــة فى الفكرة المصرية الفنية.. حتى إذا عدنا إلى الطبيعة تعرّفنا هذه الصفات وقدمتنا الطبيعة إلى كثير غيرها، فديدن الطبيعة ذلك القول الحكيم "من معه يعطى ويزاد".

يعلمـــنا المتحف المصرى التأمل البطىء العميق: ذلك الفن الرائع المسى. ما من فكـــرة من أفكار مصر القديمة إلا وهى ثمرة أجيال من :لتأمل يتقابل فيها البدائى والنهائى.. والظاهر والباطن.. والداخل والخارج.. والعارض والخالد.

مـــا "سخمت" و "هاتور".. و "رع" و "أوزوريس" وما شاكلها إلا رموز لها ما وراءهـــا. وهـــى قادرة على الإيحاء بإيحاءات لا حصر لها ولا حد لأشكالها، بل يـــأخذ كلّ من معينها ملء نفسه ووسع قدرته ولون وعائه ولها معين لا ينضب وسعة لا تحد.

وتوالـــت مقدماتنا.. بل شعائر حبنا لصنع الله، ولما أبدع الإنسان من صنع متقن عـــبر الســـنين من الأربعينات وعبر عشرات السنين.. ونأمل أن تتوالى حتى يحين الحين ويتسلم الدعاء والدعوة جيل تالى يفقه ويضيف.

جـ. المكتبة جناح البيت: ا
المقتنيات والإنتاج

القلب المصرى قلب صوفى. ولابد من تصحيح مفهوم الصوفية: وللصوفية تعاريف عدة، ولكن جوهر الصوفية هو جوهر الدين وجوهر الدين هو التوحيد.

ولكن التوحيد كما يقول الغزالى - قشر ولب وقشر قشر ولب اللب. وشتان بين اللب والقشر.. وبين لب اللب وقشر القشر.

وليس هذا موضوعا للجدل لأن جوهر الدين هو الإيمان السليم: رؤية قلبية، وهو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

ووظيفة المكتبة أنها أداة يتحقق بحسن استخدامها الإيمان السليم والعمل الرشيد.

والإنسان حس وعقل وقلب.
وطريق الإدراك فى الحس هو الذوق.
وطريق الإدراك فى العقل هو التجربة.
وطريق الإدراك فى القلب هو الوجدان.

ويتميز العصر بالعلم الذى يعتمد على التجربة المحسوسة الملموسة المشاهدة.
يتميز العصر بالقدرة على التعامل مع المحسوس الملموس المشاهد. وهذه القدرة - قوة العصر - لا تميز بين الخير والشر. لهذا كان العصر أسير الأهواء المتضاربة: يفتقد العصر معيارا، وعلم العصر لا يزود المعيار.

وقد كان لمصر فضل الكشف الأول عن المعيار. كان لمصر فضل الميزان.. ويؤكد عالم المصريات هذا الأمر. ى كتابه العظيم "فجر الضمير".

ويقوم تنسيق المكتبة فى هذا البيت - بيت الفن والحياة على هذا الأساس:
عن يمين الداخل العلم.. وعن يساره، الفلسفة والدين والتصوف ويلى ذلك المصريات.. وأمامها صوان الحرية على درجة أعلى فى القبة المجاورة.

ولكن ما علاقة المعيار بالحرية؟ والحواب أن شرط الحرية الخلاص من الهوى.
وهنا نتوقف لندرك معنى مصر الجوهرى.. معنى الميزان المعيار. صنجة هذا الميزان "الماعت":
هذا الأساس المنسى فى إدراك المعنى، معنى مصر وسائر المعانى بغير إدراك "الماعت": الحق.. العدل، تنتشر الفوضى وتنذر الكارثة كما هو بيّن واضح فى هذا العصر عصر العلم الجزء. أما العلم الشامل فهو هذا العلم الجزء يتممه علم القلب: علم الحق والعدل.

وكما يتطلب علم المحسوس الملموس المشاهد التجرد عن الهوى.. يتطلب علم القلب: علم الحق والعدل التجرد عن الهوى.. وعندما يتجرد القلب عن الهوى تشرق فى أنحائه رؤية "الماعت" وتتغيى الفلسفة.. ويتغيى الدين.. ويتغيى التصوف رؤية هذا المعنى.

وقوام الفلسفة - إذا لم تقتصر على العقل وحده بل اهتدت بالدين وجوهره التصوف - هو البحث عن المعنى.
والحياة الخالية من المعنى لا معنى لها.. وكذلك هى الحياة المعاصرة رغم العلم الرائع والتقنية الرهيبة.

فى مكتبة هذا البيت - بيت الفن والحياة - مراجع مختارة فى العلم بمعناه الحديث وتاريخه وأسلوبه ومنهاجه وحدوده. وفى هذه المكتبة مراجع مختارة فى الفلسفة

والدين والتصوف من الشرق والغرب.
كما أن فى هذه المكتبة مراجع مختارة فى المصريات.

وقد استعان أصحاب هذا البيت بكل هذه المراجع وتتلمذوا عليها، ولها عليهم الفضل الكبير. وأثمر هذا رؤية جديدة هى ثمرة متفردة.
عاش هذه الثمرة أصحاب هذا البيت: محّصوها وعملوا بها. وكان عملهم هو أيضا طريقهم إليها.
كانت الحرية غايتهم..
كان تحقيق الذات المصرية المعاصرة بغيتهم:
الذات المصرية ذات المجد القديم فى العصور القديمة، وذات المجد المكمل له فى العصور الوسيطة:
كان وما زال تحقيق هذه الذات العتيدة معاصرة وأصيلة ومبرأة من الظلية والتبعية، هو الغاية.

وقد أشرقت فى قلب هذا البيت أنوار الحرية بفضل مجموعة مراجع مختارة فى صوان الحرية. فى هذا الصوان، وفى القلب منه أعمال أقطاب الصوفية. وعلى مقربة منهم روائع أعمال البشرية. وبين القطبين تتبين وشائج القربى.. بل وحدة القلب البشرى عندما يصفو ويسمو ويعلو فوق العرض الأدنى.

بين الكلمة والصورة: الكلمة الصوفية، والصورة التشكيلية الرائعة، والكون المعجز عندما يشف، وعمل البشر السوى العظيم، تكمن وحدة واحدة هى الحق.
وللحق مقاييس تختلف باختلاف درجات الناس. ولكن الحق الأسمى فوق كل مقياس.. فوق الجدل والمهاترة.
ومن يعرفون الحق الأسمى يلوذون بالصمت ويعملون: يعملون العمل البشرى العظيم.

جـ. المكتبة جناح البيت: ب
المقتنيات والإنتاج

القلب البشرى قلب صوفى يستوى فى ذلك قلب الإنسان فى أى مكان وزمان "إلا أن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى" فيرُان على قلبه، وقليلا ما يفيق من أثر هذا الذى جناه.

ويبدأ طغيان الإنسان بظلمه لنفسه بادئ ذى بدء. وظلمه للآخرين يتبع ويستشرى.
وظلم الإنسان لنفسه جهل وغفلة وضلالة، إذ يقع أثر هذا الظلم للنفس على الظالم كما يقع على المظلوم..
ولو تنبه الإنسان وأفاق، وعلم أنه إنما يظلم نفسه عندما يظلم الآخرين لأدرك سرا من أسرار الحياة البشرية السوية

وظلم الإنسان لنفسه يكون بعدوانه على طبيعته التى فطره الله عليها..
وتتلخص فطرة الإنسان كما أدركناها بعد تأمل طويل استغرق السنين، وتناول تاريخ البشر وأعمال البشر.. تتلخص فطرة الإنسان فى أنه خلق ليكون فنانا.. وعالما.. ومتصوفا:

الفنان يدرك القيمة ويجسدها..
والعالم يعرف منطق الحدوث..
والمتصوف يعشق القيمة ويتفانى فيها.

وعندما يتنكر الإنسان لأى من هذه الدعائم يكون ظالما لفطرته. عندئذ يكون

الجهـــل والغفـــلة والضلال، ويكون العدوان على الآخرين، ويتبعه تحمل الظالم نتيجة ظلمه لنفسه مسخا وتشويها لها وبُعدا عن الحياة البشرية السوية.

ويظن المنتصر الظالم أنه قد انتصر.. وهذه جهالة وغفلة وضلالة.
ويبتعد الإنسان عن الهداية بابتعاده عن الطريق حيث الفن البصير، والعلم النافع، والديـــن الحق توفر للإنسان الطريق إلى اليقين. "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك".

مـــن عـــرف نفسه عرف ربه. وأظلم الظالمين من ظلم نفسه. الخشبة فى عينك، والقشة فى عين أخيك. واصطلح أنت مع نفسك أولا.
وكثير غير هذا مما يترلق على الألسن وقليلا ما يمحصه الإنسان.

ولكن ما علاقة هذا كله بالمكتبة؟ وأقول إن هذا ثمرة المكتبة.. ثمرة تجارب البشرية فى الحيـــاة.. ثمـــرة الـــتاريخ: التاريخ الطبيعى.. والتاريخ البشرى، تاريخ الجماعة وتاريخ الفرد ولأننا لم نحاول تعوّد رؤية الكل، قليلا ما نفقه حكمة الجزء.

ولقد تعودنا أن نلوم الغير.

نلوم زماننا والعيب فينا ∴ وما لزماننا عيب سوانا

قـــد يكون لزماننا وللغير من العيوب مالا يحصره حد أو عد، ولكن التستر على عيوبنا يقع ضره علينا أولا وعلى الآخرين من بعد.

إن مردود المراقبة والمحاسبة للذات مردود مضمون فى تدعيم حياة الإنسان، بينما مراقـــبة ومحاسبة الآخرين قد تعود على الذات بالغفلة عن عيوبها وهنا ظلم لها. والتركيز على فضائل الآخرين قد يفتح الباب لمزيد من التدعيم للذات.

ويحفـــل تراث البشرية فى الأدب والفن والموسيقى • إذا حرصنا على التودد إلى أحســـن مـــا فيها من قمم وقيم – بماعون رهيب لإثراء حياة الإنسان لو عرف كيف يتزود من هذا الماعون. وهذا أروع وأنفع من مجرد التقدير الفنى:

الفصل الثانى

١. "دعوة إلى مشروع قومى شامل
يواجه الواقع بمنهجية علمية"

١. لمنطقة الشرق القديم بعد تاريخى، وعمق ثقافى عبر العصور القديمة والوسيطة كانت فيه البلاد رائدة فى الحضارة والمسيحية والإسلام، وإن كانت اليوم تمر فى بطن موجة تتسم فيها بالتبعية الثقافية.

٢. ومصر فى قلب هذا الشرق القديم، ولها بحكم هذا التاريخ طاقة معنوية مهدرة. وذلك لسطحية الوعى بأعماق معطيات هذا التاريخ.

٣. وفقه معنى الحضارة، ومعنى الدين، أساس. وقد كانت هذه الدعائم خطوات على طريق واحد يتغيى حرية الإنسان.

٤. إذا تحقق فقه معنى الحرية، ومعنى الدين، ومعنى الحضارة، ومعنى الإنسان كما أدركه هذا المكان، وكان هذا الفقه موجها ومتخللا كل الأنشطة، كان بمثابة رؤية واضحة للهدف وللطريق الموصل إليه.

٥. من الضرورى أن تفقه المنطقة أنه كان لها دور، وعليها دور آخر تجاه العالم هى مرشحة له بحكم ماضيها وملتزمة به إذا صح السعى واستقام الوعى.

٦. ولذلك كان بناء الإنسان عبر الطفولة.. والتعليم.. والبيت وكان الإتقان فى بناء الإنسان وفقه معنى الإتقان، أساس.

٧. وكان الوعى بالشخصية القومية باعتبارها رصيدا من الطاقة المعنوية الموجهة، أساس .

٨. وكان الوعى بأن معنى العمل الذى يعمر منجزات التاريخ أساس أساسى.

٩. هذه النظرة للموضوع استغرق تحصيلها زهاء نصف القرن، وكان لها

جانبان: نظرى وعملى.
والأمل أن تمحص هذه الخبرة ولا تهمل لتهدر.

٢. معنى مصر
القيم المصرية الأصيلة

معنى مصر.. ومعنى الحضارة.. ومعنى التاريخ.. ومعنى العصر.. ومعنى الإيمان.. ومعنى الديـــن.. ومعنى الفن.. ومعنى العمل.. ومعنى العلم.. وأخيرا وليس آخرا معنى الخير.. ومعنى الجمال ومعنى الحق.. كل هذه من أساسيات إدراك معنى الإنسان فى مصر.

إعرف نفسك، كانت وما تزال وستظل نقطة البداية لمن يريد أن يكون؛ أى لمن يريد أن يحقق وجوده.

والبشرية فى زعمنا - إنسان واحد.
وتاريخ البشرية شرح لمعنى الإنسان.
وتقـــف الفـــردية الشائعة حائلا دون الوعى بأن الإنسانية إنسان واحد. ويتيح العصـــر بما لديه من علم، وبما حققه من توحيد للعالم، الفرصة للوعى بأن تاريخ البشـــرية شرح لمعنى الإنسان، وأن الإنسانية إنسان واحد يريد أن يحقق وجوده على الأرض.

ولكن الوعى ما زال قاصرا. وقصور الوعى خلف مآسى العصر. وبقدر ما يسمو الوعى ويسمو ويتسع، تتلاشى مآسى العصر.

... ...

ولنبدأ بماذا تعنى مصر فى ضمير التاريخ؟
تعنى مصر - كما هو شائع - مهد الحضارة

ولكن ماذا تعنى الحضارة؟ وماذا يعنى التاريخ؟

تعنى الحضارة نوعية من الوجود
تتحقق فيها إنسانية الإنسان.
ويعنى التاريخ تجارب الإنسان لتحقيق هذه النوعية من الوجود
يصيب تارة.. ويفشل تارة أخرى.

وفى مصـــر تتابعت التجارب بلا انقطاع منذ العصر الحجرى الحديث. وما زالت التجربة مستمرة. ولهذا لزم الوعى بحصاد التجربة ليستقيم السعى.

ومصـــر هى أرض وقيمة. وما يعنينا الآن هو ما تحصل على الأرض من قيمة هى ما تلخصه كلمة حضارة.

والإنسان بلا قيمة، لا قيمة له.
وبقدر ما يحقق من قيمة تكون قيمته.
بديهية لا تحتاج إلى شرح.

والــذى يحتاج إلى الشرح هو القيم التى حصلتها مصر عبر تاريخها، والتى سميناها حضارة. ولنبدأ بالعصور القديمة، ونثنى بالعصور الوسيطة.

أولى هذه القيم التى تحققت فى مصر فى العصور القديمة هى:

علاقة الإنسان بالإنسان وتشمل علاقته بنفسه.
وسر هذه العلاقة هو التوحد؛
توحد الفرد فى ذاته
وتوحد الأفراد فى مجتمع.

ويشهد على هذا التوحد سيماء الأفراد وما توحيه من سكينة، والمنجزات الرائعة الــتى تعاون فيها المجموع على قلب واحد. وقد عاش المجتمع المصرى، فى العصر الأول مــن حضـــارته الأولى، القـــرون بلا حروب، وأنجز من الأعمال الدقيقة والجليلة ما زال يبعث فى روع الإنسان الإجلال.

وأنشأ ونمّا من فنون السلام علاقة مثلى بين الذكر والأنثى، وأدرك حكمة الجنس

وفقهـــه، ووضع بذرة الحضارة فى البيت، وأومأ إلى أن غاية الحضارة هى العالم كـــبيت. وكانت فحوى حكمته حب فى البيت، وعمل رائع مع الجميع لملايين السنين خارج البيت.

والقيمة الثانية من القيم الإنسانية لمفهوم الحضارة كما حققتها مصر فى عصورها الأولى هى:
علاقـــة الإنســـان بالكون: من حجر وشجر وحيوان.. من ليل ونهار.. من أرض وسماء.. من ماء وفضاء.
وسر هذه العلاقة معرفة ومحبة فى وقت معا.
ويشهد على هذه العلاقة ما حققوه من أعمال، وما أدركوه من كنه هذا الكون: مـــا مـــن صغيرة أو كبيرة لمسوها إلا والمعرفة والمحبة دليلها. يقول البارودى إن حصـــى آثـــارهم أغلى من التبر وأنك ترى فيها مجموع الخلائق فى سطر.. ذلك الشغف العارف والتناول الرقيق، والتفهم العميق للوجود بعامة ولأى [illegible]

غاب عن العصر معنى الإيمان؛
والإيمـــان هـــو التواصل مع سر الوجود. ولذلك فالإنسان اليوم ريشة الريح.

غاب عن العصر الرؤية الشاملة للحياة:
لهذا لم يستطع أن يتفقه معنى الحياة.
غاب عن العصر إدراك ما وراء الفرد:
لهذا تأزمت حياة الفرد والمجتمع.

وغابت عن الإنسان الرؤية القلبية للمبدأ الروحى والقانون الأخلاقى؛ أصبح السلام حلما من الأحلام.

اهتم الإنسان بالصحة الجسدية، وأهمل الصحة النفسية. احتفل الإنسان بالقوة يرهب بها الإنسان، وأُنسى التعاطف والوداعة والرفق. فأصبح أسير الخوف والقلق.

تعالى فسقط.. وتعالم فجهل

عبد الوسائل، فعميت عليه الغايات

هذا هو العصر بإيجابياته وسلبياته؛

تنكر للدين، فضلّ الطريق

اتخذ من الدين أداة ولم يصبح أداة للدين

وكما تقول الصين:

"عندما يمشى الرجل المعوج فى الطريق المستقيم يعوج الطريق".

لا خـــير فى مـــن ينكر الدين، ومن يسئ باسم الدين: الدين الحق يبدأ بإصلاح الذات قبل إصلاح الآخرين. الدين أن يتجرد الإنسان من الهوى. الدين أن يسلم الإنسان لله لا أن يصير شيطانا يدعو إلى الله.الدين جوهر لا مظهر

قلب عف وتطهر

وعى الفرد بالفرد الصمد.

وامتثال لعقل أكبر

الدين الحق واحد مهما اختلفت الصور

شـــاهد عـــلى ما وفق إليه القلب فى فجر التاريخ البشرى من إدراك نفاذ وفعل رشيد.

الطبيعة أم حانية وعاشقة، تعبر بشتى نظمها عن أشواقها للمبدأ الأسمى.

والقيمة الثالثة هى:

إدراك المبدأ الروحى؛

أدرك المصـــرى القـــديم أن قوام الوجود هو المبدأ الروحى؛ المبدأ الذى تنم عليه الطبيعة بروعة كيانها، وبما تشف عنه مما يعجز عنه الوصف.

المبدأ، أخفى ما فى الكون، وأظهر ما فيه؛

الخفى عند الغفلة، الظاهر الباطن عند الوعى

ذلك الذى يتمركز فى أى شئ ومحيطه من وراء كل شئ

أدرك المصرى القديم المبدأ الروحى وجودا خارج الزمان والمكان فشغل به. وكما يقول الشاعر المسلم الصوفى:

شغلت بليلى عن سواهـــا فلــــو أرى جمادا لخاطبت الجماد خطابها
ولا عجب أن أخاطب غيرها جمادا ولكن العجيـــب جـــوابهـــا

وكـــان من نتيجة هذا الإدراك أن انهار الحجاب بين الحياة وما بعد الموت. وظن بعض الناس – جهالة – أن المصرى قد شغله الموت عن الحياة. وما شغل المصرى عن الحياة ولكنه أدرك معنى الحياة ومعنى الموت.

لأنه أدرك القيمة الرابعة. وفحواها:
أن الموت ليس النهاية ولكن الموت بداية النهاية
لقد أدرك المعاد.. والحساب
والميزان.. والثواب والعقاب

وهنا نختتم سردنا للقيم الأساسية التى أدركتها وتحققت بها الحضارة المصرية بذكر القيمة الخامسة وهى:
إدراك "الماعت".
وربمـــا كان إدراك هذه القيمة هو سر قيام الحضارة المصرية. وغيابها هو سر أزمة الحضارة المعاصرة.
فما هى "الماعت"؟
هى العدالة.
هى غذاء الآلهة فى العصور القديمة.
وهى التى يوزن أمامها قلب الإنسان بعد الوفاة.
وهى عماد القانون الخلقى، بل هى عماد قانون الخلق فى الفن والحياة والطبيعة. وهكذا تدرك الخير والحق والجمال.

إذا صـــح ما ندعيه وكانت هذه القيم هى دعائم الحضارة كما حصلتها مصر فى

عصـــورها القديمة قبل الديانات السماوية، أيكون من الغريب أن تكون مصر فى العصور الوسيطة صاحبة ذلك الشأن الذى كان لها فى المسيحية والإسلام!
أيكون من سلامة الإدراك أن نعزل تاريخها القديم عن تاريخها الوسيط؟ ألم تكن العصـــور الوسيطة بما فيها من مسيحية وإسلام تحقيقا لإيجابيات العصور القديمة وسموًا بها إلى معطيات الديانات السماوية.

مـــا أحوجـــنا أن نعيـــد قراءة التاريخ: تاريخ البشرية بعامة، وتاريخنا على وجه الخصوص؛ لنعرف معنى وجودنا كما تحقق عبر التاريخ ولنعرف أين نحن من هذا المعنى.. معنى مصر.

إن أزمة العصر.. أزمة الإنسان فى هذا العصر .. أنه لا يعرف معنى الحياة .. العصر غنى بالوسائل.. فقير فى الغايات التى تستحق أن يحيا ويموت من أجلها الإنسان.
القـــوة والغـــنى والصحة ليست حدود إنسانية الإنسان. إن معجزات العصر من العلوم الحديثة إضافة رائعة إلى تراث البشرية. وما دعمته هذه العلوم من تقنيات رهيبة أضافت إلى قدرات الإنسان ما جعل الأسطورة والواقع يتعانقان. ولكن ما يصـــنعه الإنسان بالإنسان من عدوان، وما يمكن أن يصنعه الإنسان بالأرض وما يعيش عليها وما يحيط بها لا يحتاج إلى تعليق:

شئ ما أساسى يغيب اليوم
وهو ضرورى لكى لا تتحول النهضة العلمية
وما أتاحته من تقنيات إلى كارثة

إن من إيجابيات العصر العظيمة أنه كشف الغطاء عن الكثير من منجزات البشرية فى شـــتى العصـــور.. وســـعى ودعا إلى صيانتها وإتاحة التعرف عليها بمختلف الوسائل للناس أجمعين.

ومـــن إيجابيـــات العصر أيضا ارتفاع الدعوة بتحرير الإنسان وما يسمى حقوق الإنسان.

لكن هل أدرك الإنسان حقا معنى الإسان؟

وهل فقه الإنسان حقا حصاد التاريخ ؟..

ومعنى الحياة ؟.. وحكمة الوجود؟

من البديهى أن العصر أدرك شيئا وغابت عنه أشياء.

والديـــن فطرة البشرية السوية التى لم تنحرف: وفطرة الإنسان فى جوهرها فن؛ لأن الفن وحدة تنشد قيمة.

والفن المثالى هو الكون بعيدا عن التدخل الإنسانى

الكون وحدة تشع قيمة.

وكـــلما أدركـــنا هـــذه الوحدة بعمق، كلما كانت القيمة المشعة أشد عمقا.

والإنسان المبعثر أشتاتا لا يرى من الكون إلا أشتاتا.

والإنسان المتكامل فى وحدة غنية يرى فى الكون وحدة غنية مشحونة بالقيم.

وهذا التكامل الأساسى فن.. وفطرة.. ودين

وحدة الحياة فى الداخل والخارج واتساق نمط

الحياة مع الوحدة الرابضة فن وخلق وفق الكون كله

جوهر الطريق المستقيم.

وهـــذه الأساسيات بسائط ضرورية فى فن الحياة؛ ذلك الفن الإنسانى الأساسى وبقية أنشطة الإنسان فنون روافد:

كل أنشطة الإنسان - إن تحققت فيها القيمة - فنون:

العـــلوم فنون.. والصناعات فنون.. وحركات الإنسان الضرورية والترفيهية فنون روافد تثرى إنسانية الإنسان. هذا إذا تكاملت الحياة؛ أى تكاملت شتى الأنشطة البشرية على اتساق مع سر الحياة فى الداخل والخارج على سواء.

ونحـــن فى هـــذا العصـــر نحاول أن نعرف الخارج والداخل على المستوى المادى وبالأســـلوب العـــلمى الحديث؛ أسلوب الملاحظة والتجربة. وهذا جيد بشرى

عظيم. ولكننا نضل السبيل لأننا لا نعرف الإنسان.

مفهـــوم العلم الإسلامى يتضمن المفهوم الحديث للعلم. ولا شك أنكم تعلمون أكـــثر ممـــا أعلم عن جذور العلم الحديث فى النشاط العلمى الإسلامى. ولكن المفهوم الإسلامى للعلم يتضمن جانبا آخر لا يقل أهمية إن لم يكن أكثر ضرورة لكى تستقيم الحياة. ويكفى أن أحيلكم على "إحياء علوم الدين" فهو فى تقديرى خير من يشرح معانى العلم الأخرى التى أكدها الإسلام وأهملها العصر. اللهم إلا القليل من الخاصة.

عـــلم أحوال القلب هو ما أود فى هذا المقام أن أشير إليه: لعلاقته بتحقيق إنسانية الإنســـان مـــن جهة ولضرورته لتعميق معنى الفن كما مورس فى هذا المكان من الأرض وفى غـــيره مـــن الأماكن التى لم يكن الفن فيها أسير الهوى والبحث عن المـــتعة والمنفعة الرخيصة، عندما كان الفن وأحوال القلب فى مواجهة المطلق هو الشغل لنشاط الإنسان فيما يقوم به من تشكيل للمادة ينم عن أحوال القلب وما يتجلى له ويفيض عليه من نعم.

الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

ومصـــر الـــرائدة فى نمو الوجدان الدينى فى العصور القديمة.. والمحتضنة للديانات الســـماوية فى العصور الوسيطة تشع آثارها وتدل على قلب مصر وما احتفل به من قيم هى من صميم معنى مصر.

ومصر الأرض وحدها ليست مصر.
والإنسان لا يكون مصريا بحق لأنه
ولد فى مصر من سلالة ولدت فى مصر
ولكن يكون الإنسان مصريا بالبحث والدرس والعناء:
بأن تتمثل فيه القيم التى نشأت وترعرعت على أرض مصر..
والتى احتضنتها مصر ورعتها وتمثلتها.

المصرية صعبة المنال وليست حقا مكتسبا.

المصـــرية نوعية من الوعى وأسلوب من الجهاد عماده مزيد من الوعى وكثير من البحث وعميق من العمل الخلاق.

المصرية مسئولية..

جهاد فردى أولا بادئ ذى بدء

يتحول إلى جهاد جماعى.

المصرية معيار

المصرية للمستقبل أمل.. وللحاضر مشروع حضارى.

كيف يتحقق هذا المشروع الحضارى؟

كيف يتحقق بنيان الإنسان المصرى المعاصر؟

لابـــد أن يـــتكاتف جميـــع الرواد فى مختلف مرافق الحياة ممن يؤمنون بمصريتهم ويفقهونها حق الفهم بأن يكونوها.. تتواصل هذه الجهود مع جهود السابقين من الرواد فى شتى المجالات ومن مختلف عصور البلاد، على أن يكون الأسلوب علميا .. والوعـــى عالميا.. والبحث أمينا.. والعمل الخلاق مستمرا لا يعرف الكلال ولا يتطرق إليه اليأس.

هـــذا المشروع الحضارى هو ما تحتاجه البلاد لليوم.. وللغد القريب والبعيد حتى تعاود مصر عطاءها من جديد.

٣. "بيان بالجانب النظرى للدعوة إلى نهضة قومية شاملة"

الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية

المعنى الثقافى للثورة.

بناء الإنسان والتعليم.

بناء الإنسان والطفل.

بناء الإنسان والبيت.

الإتقان فى بناء الإنسان.

الإتقان.

الشخصية المصرية.

أساسيات الشخصية المصرية.

الفن فى مصر عبر العصور الشخصية المتميزة.

الفكرة المصرية فى الفن.

الفنون الإسلامية أصالتها وأهميتها.

فقه الحياة وفقه التشكيل.

الفن والعلم والتجربة الدينية.

الفنون الإسلامية والقرن الواحد والعشرين.

معنى مصر.

وسلسلة من الأحاديث. والحديث السابق والمنشور والذى ألقى فى المجمع المصرى للثقافة العلمية، حديث واحد منها.

الجانب العملى للدعوة ويشمل
أعمـــال أصدقاء الفن والحياة، وتشكل مدرسة مصرية أصيلة ومعاصرة تتجاهلها السلطات الرسمية أحيانا، وتحاول أن تهدمها أحيانا أخرى.
ومع ذلك فإن قلب مصر الحى رعى وحمى وقدر هذه الدعوة فى صورة

وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى..

ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى..

والدكتوراه الفخرية من أكاديمية الفنون..

وجائزة الدولة التقديرية.

الفصل الثالث

مصر والقرن الواحد والعشرون

تتناطح القوى السياسية والاقتصادية والحربية، وتتخاذل القيم وسط هذا المعترك. والعلم الذى يعتبر القيمة الإيجابية الفريدة والمعتبرة.. يعمل فى خدمة السياسة والإقتصاد والحرب.

ويحاول سدنة القيم الروحية فى العالم مقاومة هذا الطوفان الجارف، وتحاول كل فئة من الفئات أن تزود عن حياضها بمختلف الوسائل المتاحة لها. ولكن جبروت السياسة والإقتصاد والحرب ما زال هو المسيطر المهيمن على واقع الحياة اليوم. ويفرض هذا الواقع على نفوس البعض اليأس، وعلى نفوس أخرى التسليم.

ولكن هذا الواقع فى حقيقة الأمر نتيجة ضرورية لواقع آخر أكبر وأهم وأشد، ويتطلب موقفا إنسانيا موائما

وفى غياب هذا الموقف الإنسانى المطلوب تعم الفوضى وتضيع جدوى المقاومة.

هذا هو الوضع الراهن.

فما هو الحل؟

إن الواقع الآخر الأكبر والأهم والأشد قوة هو أن الإنسانية اليوم تواجه أزمة نمو جديدة. وهى معرضة للخطر الداهم.. كما أنها قد تفلح فى تحقيق هذا النمو، وعندئذ يتغير الواقع المتحكم اليوم إلى واقع جديد.

من هذا المنطلق يعمل العاملون ممن لم يسحقهم اليأس أو يشل فاعليتهم الأمر

الماثل أمامهم من فوضى عارمة وغياب للقيم.

ولكن على ماذا يستند هؤلاء الناس؟

ولماذا لم يستبد بهم الخوف واليأس؟

لأنهم من المؤمنين الذين "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" والذين لا يثنيهم عن الفكر البنّاء والعمل البنّاء شئ من الأشياء..

لأنهم قد توحدوا مع الحياة الأعمق، والواقع المحرِّك الأشد عمقا..

لأنهم يشعرون فى قرار نفوسهم بما هو أكبر من كل قوى الطغيان السياسية والاقتصادية والحربية..

لأنهم يرون بعين البصيرة، ويعملون بهدى الأعماق..

لأنهم هم أنفسهم بشائر الواقع المطلوب..

لأنهم يمثلون الموقف الإنسانى الموائم للنمو الجديد..

لأنهم يعرفون التاريخ: كيف كانت الحياة، وكيف صارت. وأن الخلاقية على المستوى الطبيعى وعلى المستوى البشرى قادرة على أن تشكِّل دائما واقعا جديدا ..

لأنهم يؤمنون أن طبيعة البشر – إن هم احترموا هذه الطبيعة – فيها النمو المستمر من واقع إلى واقع بغير حدود، يحدوه الأمل ويحف به من الخيرات ما لم يكن لِيُحلم به فى يوم من الأيام..

لأنهم يدركون أن حياة الإنسان على هذه الأرض ما زالت فى مراحلها الأولى وأن ما نسميه ثقافة وحضارة وحرية لم تزل بعد فى بداية التاريخ، وأن هذه الآمال مركوزة فى الجبلّة البشرية، وأنها فى طريقها إلى التحقيق ما دام الإنسان يرى بعين بصيرته أنه عندما يعمل على تحقيق هذه الرؤى إنما يعمل بهدى من الأعماق، وأن لسعيه نصيب من فعالية وجمال وجلال هذه الأعماق.

الذين لا يثنيهم عن الفكر البنّاء والعمل البنّاء شئ من الأشياء. يفكرون ويعملون لأنهم مختارون لهذا الفكر وهذا العمل، ولا يملكون إلا أن يقوموا بما هو مفروض

. عـــليهم من أعمق أعماقهم، ولا خيار لهم فيه. وأن هذا الإضطرار هو فى الحقيقة عـــين الحـــرية التى تهفو إليها النفوس الإنسانية النامية. إن تكشُّف هذه الحقائق الأولية الأساسية هى منطلق إجتهادات الفكر والعمل المطلوبة اليوم ليطلع الفجر الجديد.

مـــن كـــان يظـــن أن الحيوان البشرى الضعيف سيكون له يوما من الأيام هذا السلطان !! من كان يظن أن الإنسان الذى يبست من حوله الأرض فى الصحراء المصـــرية لم ييأس ولم يهاجر مع المطر إلى قلب القارة.. بل آثر أن يترل إلى وادى الـــنهر، فـــيروِّض قوى الهدم، ويبنى لمستقبل البشرية تلك الحضارة الرائدة، التى أصـــبح فيهـــا الإنسان غير الإنسان، والحياة ذات آفاق واسعة لم يكن الإنسان الأول ليحـــلم بها. وتلك القيم التى خلقها الوعى المصرى عبر الزمن ورغم المحن لتكون للناس رؤى تصوِّر العلاقات المثلى:

للإنسان مع الإنسان

وللإنسان مع الكون المحيط

وللإنسان مع السر الماوراء

وللقانون الخلقى

وأخيرا وليس آخرا للبعث والميزان والمعاد.

أليـــس هذا واقعا ملموسا فيما نسميه الآثار من أقدم العصور وإلى عهد قريب؟ أليس هذا الواقع الحى الملموس فى متناولنا على هذه الأرض؟

ألم تقم هذه التجربة البشرية الرائدة على أرض هذا البلد؟ لِمَ لا نعط هذه التجربة البشرية حقها من الإعتبار! ولماذا لا نعمل على استيعابها لتسهم فى تشكيل كياننا الجديد المنشود؟

أنـــت لا تكـــون مصريا بالولادة، بل تكون مصريا بالبحث والدرس والعناء

أنـــت لا تكون مصريا بالتحقيق إلا إذا استوعبت هذا الدرس وبحثت

وعانيت، لتلد نفسك جديدة وعفية وموصولة بمنابع القوة التى دعمت هؤلاء القدماء.. وموصولة بالأصول التى لها هذه الفاعلية البناءة القادرة علـى تغيير الواقع الدافع للبعض إلى اليأس إلى واقع آخر كان مضمرا فى جبلة الإنسان أيام لم يكن له حول ولا طول.

ذلـك هـو درس التاريخ.. وهذه هى جدواه المنشودة.. وهذا هو الأمل فى تأمل الشخصية المصرية، عسى أن يكون من الميسور استعادة بنائها واستكمال سعيها رغم الفوضى العارمة والفيضان الجارف لواقع الإنسان المعاصر.

ودرس آخـر من دروس التاريخ: من كان يظن أن المسيح ستكون له الغلبة على أباطـرة الرومان؟ ومن كان يظن أن محمدا سيبنى أساس حضارة الإسلام؟ وأن سـكان هـذه الأرض - مصر - سيكون لهم شرف اعتناق المسيحية والإسلام والدفاع عن هذه الرسالات ضد جحافل التتار وطوفان الصليبيين.

لـلمرة الـثانية تتألق تلك الشخصية المصرية العتيدة، بل يزداد تألقها كلما أدلهم الظلام وازداد الطغيان.
هذه الشخصية المصرية العتيدة فى الحق نرجو لها التألق من جديد.

ولكن ما هو كنه ذلك الدرس والبحث والعناء؛ وكيف يكون من الميسور لنا أن نلد أنفسنا من جديد؟
هذا بالضبط وعلى وجه التحديد هو السؤال المطلوب من كل منا أن يجيب عليه: أن يوجهه إلى نفسه، وأن ينتظر من نفسه الجواب.

أمـا نحـن - أصدقاء الفن والحياة - فقد ظللنا وسنظل نبحث ونعانى وتتكشّف أمامـنا الرؤى. ومع كل رؤية جديدة تتجدد نفوسنا. ومع تجدد نفوسنا يتجدد فينا الأمل وينبعث الرجاء.
نحن نرى هذه الشخصية المصرية رأى العين عين البصر وعين البصيرة

فى لمح واحد فى المتحف المصرى، وفى رحاب الأرض المصرية، وتحت سمائها وفى محتويات متاحف عالمية كثيرة نرى شواهد هذه الشخصية فى منجزات مصر عبر العصور تنبض نبضا متواصلا تواصلا ديناميكيا خلاقــا مــتحررا من التبعية ونابعا من أصول أصيلة فى النفس والبيئة وشــاهدا ومبشــرا أن الإنسان الموصول بالأعماق، الإنسان المؤمن، الإنسان المتمسك بالقانون الأخلاقى المركوز فى طبيعة الناس والأشياء لا يحيــد عنه، الإنسان المتحضر المتفوق على البدائية الذى لا يسمح لنفسه أن ينتكس إلى البربرية..

هــذا الإنســان هــو الإنسان الحامل للأمانة والحفيظ عليها والمقدِّر لمسئوليتها. هذا الإنسان هو الإنسان الحر الكريم.

وعــندما لا نقنع بمجرد التذوق الفنى على سبيل المتعة، وعندما لا نرضى للخلق الفــنى أن يكــون على هامش الحياة، وعندما لا نعتبر العمل عبئا بل بابا للعلم ومعــراجا للنفس، عندما نحقق هذه الأمور نكون فى زمرة المفكرين العاملين على خروج الفجر الجديد لتتحقق مرحلة النمو الجديد.

ونــرجو ألاّ يتطرقن إلى ذهن أحد أننا ندعو إلى انغلاق ثقافى، فنحن مع العالمية الــتى هــى واحدة من أهم مقومات الواقع المستتر خلف الفوضى السائدة: لأن وحــدة العالم التى أصبحت حقيقة اليوم على مستوى الممكنات المادية، لم تصبح بعد واقعا على مستوى المعنويات الموائمة:

إن العالمية الزائفة المنتشرة هى نوع من الأسر والتبعية التى لا ترضاها النفس الحرة .. إنما العالمية الجديدة المنشودة هى التى تتعدد فيها - ولا تتبدد أو تتبلد - مراكز الخلق والعطاء على مستوى الأصالة العميقة والخير لكل الناس.

إن تــراث العالم كله، وليس تراث مصر وحدها، ملك مشاع نشارك فيه ونزهو بــه لأنه قيمة إنسانية نعمل أن تضاف إليه عطاءات غزيرة ومتنوعة كل يوم بل

كـــل ساعة. ولكى يتحقق ذلك لابد أن ينطلق كل ما من أصل أصيل فى نفسه وبيئته وفق ظروفه وحاجته وحسب قوة الدفع التاريخى الكامن وراء ثقافته.

أمـــا الجـــرى وراء الموضات وافتعال الاستحداثات وتسلية المراهقين وخدمـــة المتحـــلّين.. أو الظن أن التقدمية هى الإنصياع لمذهب معيّن أو لتزوة من التزوات فهو كله زيف يمضى ولا يبقى منه ما ينفع الإنسان.

أنظـــر إلى رسوم الكهوف، وبلطة الظران، وتوابيت الفراعنة التى لم تكن تصنع لـــتعرض فى "صـــالون" بل لتدفن فى غياهب القبور. وكم فى هذه الأعمال من دروس فى الرهافة وعطاء من القيم! كم فيها من معيار تخجل أمامه اليوم الأعمال التى يطنطن لها.

إن الإنســـانية إنســـان واحد، ولكن لكل شعب من الشعوب تاريخا. وإهمـــال هذا التاريخ إهمال للجذور: إن الوعى بتراث الإنسان العالمى واجب لابد منه، ولكن الوعى بتراث كل منا ضرورة لا عوض عنها.

ولا نقصـــد بتراث الإنسان الثقافى – سواء فى ذلك العالمى أو القومى – وصفات معيـــنة فى الأداء الثقافى لفرع من فروع الإنجاز، ولكن القيم العظيمة التى تحققت فى عمـــل ما، والتى يمكن أن يتحقق وأن يتحقق نمو لها فى صور مختلفة من صور الإنجاز الثقافى.

لقـــد تغـــيرت صـــورة الفـــن فى مصر عبر عصورها، ولكن القيم الأساسية فى استشـــفاف المقدس والمبدأ الروحى.. فى الصمود والارتفاع فوق الأحداث.. فى الرهافة الحضارية، كلّ من هذه القيم الأساسية فى الشخصية المصرية استمرت فى حياتها ونموّها رغم اختلاف صور مظهرها عبر العصور: شتان بين الكتابة العربية .. والرسوم المصورة على جدران المعابد المصرية الفرعونية، ولكن القيم الأساسية مـــن إتساق السمت المنطلق، وهندسة جمال وجلال التناغم الحضارى الرهيف، روح واحدة فى جسدين مختلفين.

قد يزور كاتب أو موسيقى منطقة الأهرام أو ميدان صلاح الدين فيجد فيهما من

وحى الروح الحى فى كليهما مصدرا للوحى، كلٌ فى فنه الخاص، وكلٌ بعيد عن التشكيل

إن استنهاض الهمة الخلاقة أمام العمل الفخم العظيم أمر معروف لكل فنان أصيل.. فإن الإنسان هو مجموعة القيم التى يحتويها والتى يضيفها. وغير ذلك لحم ودم وعظم.

والشخصية المصرية بنيان من القيمة.. نوعية من الإدراك تلد القيمة.. أسلوب فى الحياة تشيع فيه وتشع منه القيمة.. والشخصية وعى خلاق للقيمة. والشخصية المصرية بماضيها الضارب فى أعماق التاريخ وبثراء قيمها، عليها مسئولية الإسهام فى حل أزمة الإنسان المعاصر حتى يكون لمصر مستقبل رائع كما أن لها ماض عظيم. وكلنا مسئول فى هذه القضية.

على هضبة الأهرام نستخلص دروسا فى معنى الحياة، ومعنى الموت، وقيمة العمل، دروسا من العسير أن تشرح بمثل هذا الشرح المبين، وعلى هذا المقياس الضخم، لو أن القلب إنشرح ليتلقى فى تواضع الراغب فى الفقه، والمتشوف إلى البصيرة، والزاهد فى السطحية، والمفيق من أوهام الغفلة.

فى جيرة الأهرام يلقى التاريخ على كل قلب مستمع
أننا لن نفهم الحياة حتى نفهم الموت، وأننا لن نبلغ
الغاية من هذا الفهم إلا بالعمل الرائع الرشيد.

إن تلك الرحاب حرم نحج إليه لفقه معنى الحياة والموت والعمل فى بصيرة القلب المصرى الرائد لحضارة الإنسان.

ولكى يتحقق لنا ذلك علينا أن نذهب إلى هذه الرحاب معرضين عن قشور الكلام.. لا نستنيم لسحر.. أو نستسلم لمجرد الإنبهار السهل. علينا أن نرتفع فوق هذا وذاك.. وألا نقنع بشرح تاريخى ساذج.. أو سفسطة نقد سطحى.. أو عقلانية فطيرة تدعى الحكمة.

علينا أن ندرك أننا أمام عمل انبثق من ضمير شعب رائد شجاع، واجه الموت

كما واجه الحياة بقلب صابر وعزم لا يلين، واستشف هذا القلب أن هذه الحياة الدنيا ليست هى الكل فى الكل، ولكنها تشف عن ما هو أسمى.. وأروع.. وأعلى .. وأمجد.. وأقدس. استشف هذا القلب المصرى الرائد هذه الشهادة للحق، فاحتضن الحياة الدنيا على أنها المدخل إلى ذلك الحق، واحترم الحياة الدنيا على أنها الطريق، واهتم بهذه الحياة الدنيا على أنها الصورة الظاهرة الأولى التى نتعلم فيها ونتفقه حتى تتحقق لنا الصورة الباطنة للحقيقة ناصعة مجلوّه.

استشف هذا القلب أن التجويد فى العمل جهاد مفروض ليرق القناع الصفيق الذى تُسدله السطحية والغفلة على الحقيقة الكبرى حتى لا تبين.

على حرم الأهرام – إذا أحسنا الاستماع – نتلقى على لسان التاريخ الدرس الأول والأخير فى حياة الإنسان، ولكنه درس ليس له حدود إلا حدود الدارس وقدرته ونوعية عمله.

وكما يمثّل الأهرام الإستقرار المكين والسكينة الشامخة والجلال المهيب المطمئن، تمثّل المركب العظيمة المشهورة "بمركب الشمس" لطف الحركة المصرية وجمال جلالها وروعة رشاقتها.

وينم هذا المركب العجيب – إذا رأيناه فى معية الأهرام – عن ثقافة ذلك العصر.. عن كيف حياته:

فى هذا الإنجاز تتجلى الصنعة المصرية المعجزة التى تجلت فى تناول الحجر فى الأهرام تتجلى هنا فى سياسة الخشب.

هذا الكيف المتميز هو ما يستحق أن نتبيّنه ونتبنّاه إذا أردنا أن نبرأ من وباء السطحية وغفلة الآلية، وإذا أردنا أن نتواصل مع كنه الحضارة النقية من البدائية والبربرية، وإذا أردنا أن نفقه الحكمة المصرية فى إحكام العمل ليعرج بنا العمل إلى الآفاق العلى

إن فى هذا المركب.. وفى الأهرام.. وفى أثاث أم صاحب الهرم الأميرة

"حـــتب حرس" وحليّها وأوانيها وتابوتها المرمرى الموجود فى المتحف المصــــرى، كما فى روائع التراث الأخرى كنوزا من المراجع فى معنى الصـــنعة.. والفـــن.. والحضـــارة.. والثقافة.. والحياة.. والدين لا تقرأ مكتوبة، ولكنها تستشف بالبصيرة إذا لم نزهد فى الدرس و لم نرغب عن الإستبصار.

بينـــنا وبين صميم تاريخنا فجوة. ونظرة عصرنا هى هذه الفجوة. ولا مناص من أن نجدد نظرتنا لتتجدد نفوسنا.

وهذا هو موضوع الدرس والبحث والعناء الذى أشرنا إليه لكى تتحقق مصريتنا:

نحـــن نُلقّن - منذ البداية - معطيات عن أنفسنا وعن الأشياء وعن الحياة والموت وعـــن الفن وعن العمل وعن الثقافة وعن التحرر وعن الحضارة وعن التقدم ما أنزل الله بها من سلطان.

كل هذه المعطيات مطلوب أن تمحص،

مطلوب أن تدرك بعيدا عن حدود العصر،

مطلوب ألا يسلم بها بغير بحث واقتناع ذاتى محقق.

الشخصـــية المصرية تحتوى مفاهيم عديدة تخالف الشائع الذى نُنشَّأ عليه، وهذه المفاهيم تكوِّن أساسيات الشخصية المصرية. وفى هذه الأساسيات شفاء من بعض أمراض العصر.

وليس هذا مجال استقصاء هذه الأساسيات - وهى عديدة - ولكنه مجال الإشارة إليهـــا لبيان ما نعنيه. ولكى تتضح نوعية الدرس والبحث والمعاناة التى نقول إنها ضـــرورية لكى تتكشف حقيقة الشخصية المصرية من جهة، وكيفية إعادة البناء من جهة أخرى.

ونكـــتفى مـــن هذه الأساسيات بمفهوم الحضارة، باعتبارها وعى والتزام بنوعية وجود.

نحن اليوم ننسى أو نتناسى هذا الأساس؛ فلا نهتم بصورة الوجود التى تترسب فى

نفوس الناس، ونفاجأ بالنتيجة عندما يكون الإلتزام بهذه الصورة العشوائية عفويا. هـــذا الأساس فى توجيه حياة الإنسان لا يشغل جانبا من الاهتمام الجدير به لأن الحضارة وعى بنوعية وجود والتزام به. وكما تكون النوعية تكون الحضارة.

ونوعيـــة الوجـــود الشائعة اليوم حيث الطبيعة حمراء فى الناب والمخلب، وحيث تـــنازع الـــبقاء، وحيث الكون آلة تعمل وفق قوانين آلية، وحيث تغيض القيمة وتتسيطر الحتمية المادية.. هذه النوعية من الوجود عندما يلتزم بها الإنسان تكوِّن الواقـــع المعاصر الذى أشرنا إليه فى مطلع الكلام حيث تتناطح القوى السياسية والإقتصـــادية والحربية، ووتتخاذل القيم وسط هذا المعترك، فتفرض على نفوس البعض اليأس وعلى نفوس أخرى التسليم.

فـــإذا انتقلـــنا مـــن هذه الصورة المعاصرة إلى شئ من رواء روعة الوجود ورقته وخطره وجاذبيته كما رآه ورواه عمليا القلب المصرى القديم لأدركنا جانبا من سر الفرق بين الأمس واليوم.
شـــئ مـــن ذلـــك نستشفه من سرائر الأعمال الباقية: من حزمها.. وحسمها.. وهمسها.. وسرها.. وسحرها.. وعسرها.. من جلال همتها.. وإعجاز رحابة آفاقها .. وحكمة تماسك أجزائها جلت أو دقّت.. من صفاء جلوها النادر العزيز.. ونقاء هندستها الدقيق الأنيق اجتمعت أو تفرقت.. من كمال اكتمال رونقها يزداد مع امتشـــاق سياقها المتدفق الطويل النفس المرير الأبعاد الواسع الشامل الحافل.. من تمام إبهام جلاء قدسيتها الرهيب.. من شدة أسر عنفوانها المحب.. من بلائها الذى لا يـــبالى.. وجذب جمال الأنيس وجلالها المتعالى مع لين.. ورفق.. ورحمة تتخلل وتغلف وتفيض فتملا بالرشد والسهر والنشاط النبيه حياة وعمل القلب المتواصل الودود تملؤه بالنور واليسر والجلد والفرح والبِشر.

شـــئ من هذه الرؤية للوجود، وعاها القلب المصرى، ونما فى الوعى، والتزم بها فكانت الحضارة المصرية الكبرى الأولى.

الحضارة وعى بنوعية وجود والتزام به.. وكما تكون النوعية تكون الحضارة.
عـــندما نقارن بين الصورتين وننجح فى أن نتحرر من أسر الأولى لننعم بخيرات الثانية نكون قد وضعنا أساس من أساسيات الشخصية المصرية من جديد. وليس هذا بالأمر الهين السهل، ولكنه ممكن.

نحـــن لا نقـــول أن هــــذه الرؤى المستشفة من تراثنا المصرى القديم هى وحدها المطـــلوب أن تكون صورة للوجود نلتزم بها. ولكننا نقول إنها تكوِّن خيوطا من نسيج صورة الوجود المتاحة للإنسان المعاصر، لو أضيفت لها خيوط أخرى كثيرة متاحة من تراثنا المسيحى والإسلامى، وتراث البشرية جمعاء. فإن صورة الوجود عندنا تكون صورة أغزر ثراء، وأروع بناء، وأخطر فاجعة، وأبهى بهاء.

وعـــندما نكـــتفى بصورة الوجود كما يرويها العصر؛ نقيم الحواجز من حولنا، نحتجز أنفسنا دون الكون الرحيب.
وعندما لا ننظم أمر تواصلنا مع الوجود فينا ومن حولنا نصبح موطنا سهلا لكل دبيب وهم صغير.
ولـــنا من تاريخ البلاد. ومن تاريخ الإنسان، ومن تاريخ الكون منظم وعون لو انفتحنا عليه لانفتح علينا على نمط عجيب، ولتجددت نفوسنا.
لهـــذا، ندعو إلى إعادة بناء الشخصية الإنسانية فى هذا المكان وفى كل مكـــان حفاظـــا عـــلى كرامة كيان الإنسان ولتتحقق مرحلة النمو الجديـــدة: مرحـــلة الحـــرية حيث الحرية خلاقية متمركزة فى ذات متكاملـــة.. وحيث روافد العطاء تتدفق من جميع الأنحاء.

الفصل الرابع

جوهر الحضارة ومشكل التعليم

جوهر الحضارة ومشكل التعليم[1]

لكى يكون لنا تفكير منظم فى تناول مشكل التعليم فى البلاد، يجدر بنا أن نتخيّل الصورة المطلوب الوصول إليها بعد حل المشكل.

إذا اتّضــحت الصــورة التى نود أن يكون عليها الإنسان المصرى، فسيكون من المــنطقى بعــد ذلك استنباط الطرق الموصلة إلى ذلك الهدف، على فرض تيسر الإمكانيات.

ولوضــوح الرؤية للصورة المرجوة، يجمل بنا أن نبدأ باستبعاد العناصر التى يُتفق عــلى اعتــبارها عناصر غير مرغوب فى مشاركتها ملامح الصورة الجديدة، ثم نبحث عن الملامح المطلوب الحصول عليها قوية وبارزة.

وأول هــذه العناصــر غــير المرغوب فى وجودها كجزء من الصورة المستقبلة للإنســان المصــرى الجديد، هو عنصر عدم المعاصرة: أى عنصر التخلف. وهذا يتطلب أن نفهم بوضوح المقصود من كلمتى المعاصرة والتخلف.

وثــانى العناصر المطلوب عدم ظهورها فى الصورة الجديدة للمواطن الجديد هى السلبية: ومنها الإكتفاء بالنقد، والعزوف عن العمل الإيجابى.

وثــالث هذه العناصر غير المطلوبة فى الصورة الجديدة للمتعلم الجديد هى الفردية الطاغيــة. فــإذا كانت أمامنا صورة واضحة عن معنى المعاصــرة.. وعن معنى

[1] نشر هذا المقال فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧١/١٢/١٧

التخلف.. وعن معنى الإيجابية.. وعن معنى الشعور بالمسئولية الجماعية، كان لدينا أساس سليم نقيم عليه بعد ذلك ما نشاء مما نود ونختار، على شرط أن يتضمن وعينا بهذه المعانى إدراك الأسباب البيئية.. والتاريخية.. والإجتماعية.. والتربوية وغيرها التى ساعدت على قيام هذه العناصر غير المرغوب فيها، ثم إدراك المطلوب توفره كمضادات لها.

إذا اتضحت هذه الأمور، أمكن التفكير فى معالجة مشكل التعليم لنتحرك على أرض واضحة المعالم، ونحو أهداف مرئية بوضوح.

هذا ولا يقتصر التعليم على المدرسة والمعلّم. فكلّ منا معلّم ومتعلّم. وعلينا أن نسأل:

ما نصيب المعلم من النظرة العلمية؟ أهى شعار لديه أم أسلوب؟

ما نصيبه من النظر الدينى؟ نص هو أم منهاج؟

ما حظه من الفكر الفلسفى؟ زِىّ هو أم تعبير عن واقع حياة وأمل فى التغيير.

ما مدى إدراكه للوعى التاريخى زراعيا وصناعيا واقتصاديا وسياسيا؟

أواع هو بحركة التاريخ ومعنى الأحداث أم أن التاريخ لديه قصص وآثار؟

ما معنى الأخلاق لديه؟ أواعظ هو أم مثال؟

ماذا يعنى النجاح أمام عينيه ؟. أمتسلق هو أم محقق مستعد للمعاناة؟

مـاذا تعنى الآداب والفنون فى وعيه؟ أتزجيه فراغ.. أم إثراء حياة وتعميق بصيرة ومدرسة وجدان؟

ما حظ الألوان البشرية فى تقديره؟ أعبد هو أم هو يؤمن بالإنسان؟

ما حظ العصور؟ أمبهور هو أم يستضئ بتجربة العصور.

هذا وغيره ممكن أن يكون بداية لتلّمس مواطن وبواطن النفس المجندة لمشكل التعليم، وكلنا مجند له. ولهذا لزم التقييم.

وأخيرا وليس آخرا.. ما أسلوبه فى الحياة؟ أهو الأسلوب الفعال المطلوب اليوم للإصلاح بالمثال ؟:

توســيع الوعى.. فالبحث.. فالعمل الخلاق. أم هو أسلوب آخر؟ ونحن لا نعرف للإصلاح أسلوبا آخر.
لا توجد مرحلة من المراحل، أو جهة من الجهات، سواء فى ذلك جهة التخطيط أو جهة التنفيذ، أو جهة التعليم إلا وينبغى لها أن تتوفر على متطلبات هذا المقياس.

كـــان العدوان علينا من قرون بسبب توقفنا عن توسيع الوعى والبحث والعمل الخلاق.
وكان لابد أن يعقب ذلك، الإنحلال والتمهيد للعدوان وغلبة الغرب الذى مكّن لنفسه بتوسيعه لوعيه، وبحثه، وأعماله الخلاقة. كانت الشخصية الإنسانية للبلاد قـــد ضعفت وانحلت، والقوة المادية لها قد فترت. وكانت دفعة الغرب للإستيلاء على شتى بقاع الأرض بمختلف الوسائل ثم العدوان النفسى الذى مكّن للعدوان عـــلى الأرض أن يستشرى: ذلك العدوان النفس الذى يتلخص فى إنهيار الاعتبار الذاتى وعبادة الغرب.

وعـــندما هـــزت الصدمة الناس، وتنبّه الوعى الغافل، وبدأت عمليات البحث، كانت حركة الإصلاح والمطالبة بالإستقلال والتحرر هى أساسا العمل الخلاق.. وانـــتقل السعى من تحرير الأرض إلى تحرير السياسة وتحرير الإقتصاد. وقد حلّ وقت تحرير الفكر، وتحرير الثقافة لتحرير الشخصية الإنسانية للبلاد من جديد.
ولا مناص من أن يكون هذا هو أساس حل مشكل التعليم:
أى أن يكون التعليم هو الطريق
إلى إعادة بناء الناس أساسا
على واقعهم للتفوق عليه.
وأن للأمـــر الواقع على النفوس المجدبة سلطان، بينما النفوس العامرة تنظر خلال الأمر الواقع – مهما جثم وجسم – كأنه خرافة، ولكنه نقطة إبتداء، وتعرف أنها قـــادرة عـــلى النفاذ فيه ودفعه وإحلال واقع آخر محله، مهما كان ذلك الواقع الجاثم من الضخامة والطغيان.

وعندما نؤمن – عن يقين، بغير استعلاء وبغير سلفية أو إنعزالية، بل بتفتح وإيجابية – بـأن للبلاد شخصية متميزة من الممكن أن تكون لها ولادة جديدة هى منطق التاريخ ومنطلقه، تعمل على تأكيد ما يناسب ذلك من أسباب، وقد حققنا منها بالفعل الكثير. والشخصيات القيادية من أهم تلك الأسباب. وفى هذا المجال علينا الكثير، ولا مهرب من هذا المطلب.

إن الأمل هو:
أن نجعـل من الفرد المواطن المعاصر – والذى يخرج من القاعدة الشعبية العريضة، والـتى مـا زالت تحتفظ فى ضميرها بما تبقى من حكمة تراث ممتد عبر العصور، وتنتظر إضافات واجبة الغرس فى النفوس – الأمل أن نجعل من هذا الفرد المعاصر عندما نرتفع به إلى مستويات الوعى العليا فردا بالفعل من هذه الكتلة،
إلا أنه يتميز بما لديه من معرفة نامية..
ومن وجدان أكثر نضجا.. وعمل أصدق فاعلية..
ولكنه ما زال جزءا منها ملتحما بها ومسئولا عنها
وامتدادا لها إلى أعلى
بيـنما الوضع الراهن يجعل منه جزءا منفصلا له وجدان أكثر إمعانا فى التحلل، مسلوب الفاعلية.
وهذا الأمر – إن كان واقعا بالفعل – فما أحراه أن يكون موضع الدرس:
لابـد أن يكون هذا الفرد غير غريب فى بلاده عن بلاده.. غير غريب عن المعنى الإنسانى لهذه البلاد كما تحقق عبر التاريخ.
لابد أن يكون عارفا بأرضه ومائه وسمائه فى الخصب والصحراء فى البحر والنيل والواحات.. وأن يكون ذلك ببصره وبصيرته، بعقله وقلبه وعمله الخلاق.
إذا مكّـنا له من ذلك، كنا قد مكّنا للصانع والزارع والعالم والفنان ولكل طراز تستدعيه الحياة ويأخذه الإنسان.

أما إذا أهملنا هذا، فقد منعنا تثبيت الجذور فى الواقع، ومنعنا النمو للكتلة العريضة

مـــن البشر على هذه الأرض أن ترتفع فوق منطقة سنة الوعى بمساهمة ترسـ الإحاطـــة بالقمـــة المـــتاحة للوعى فى العصر، وللإضافة المرتقبة بما يحمل طابع شخصية إنسانية نامية متميزة مصرية ومعاصرة.

ولا يعنى هذا الدعوة إلى إقليمية مغلقة ، بل عالمية متعددة الروافد.

إن مشـــكل التعلـــيم مشكلنا جميعا – وعل كل فرد أن يجعل من نفسه – وسع قدرته وقدر رتبته – عقل هذا المشكل ليسهم فى حله.

إن علينا جميعا أن نسهم فى تشكيل شخصية الإنسان المصرى العربى المعاصر، لأن كلاّ منا فصل فى ملحمته:

وذلـــك بأن يقوم الحاكم والعالم والفنان والصانع والزارع والأديب والفيلسوف والناقد والكل بتجذير وتأصيل كيانه ومادة بحثه، مبرأة من التبعية والظلية، متفتح الوعى متطلعا إلى الحرية كما يمكن له أن يُدرك منها وسع طاقته وقدر رتبته، وأن لا يقف عند مجرد النقد والمطالبة بتحقيق ما يصبو إليه.

ومن حصيلة هذه الإسهامات تتكون ركيزة حل مشكل التعليم، وتتحقق الدولة العصرية.

هذا عن التعليم بصفة عامة.

فماذا عن التعليم فى دائرة الفنون؟

السطحية آفة إنسانية.. والتربية صياغة النفوس.

وإذا تسلّطت السطحية على التربية كان الوباء.

وقـــد ساعد انتشار الحضارة المعاصرة فى غير منابتها على استشراء وباء السطحية على المستوى العالمى.. أصبح الطلاء الحضارى بديلا عن النمو الأساسى ومطاردا له: ضحّى بالجوهر فى سبيل المظهر.

وجوهر الحضارة المعاصرة أسلوب فى الفكر عماده الملاحظة والتجربة .. وقوامه التجرد.. وهدفه التوسل بطبائع الأمور ومحاذاة الذهن لمنطق الحدوث، لإحكام الحوار المجدى بين الإنسان والواقع.

أمـــا مظهـــر هـــذه الحضارة، فما نراه من وسائل يتيسّر نقلها بينما يتعذّر نقل الجوهر.

وقـــد شـــاع أمر هذه الوسائل واستشرى كما لم ينتشر و لم يتلألأ أمر، وعمد الغافـــلون والفقـــراء فى الفاعلية والفكر من الأمم والجماعات والأفراد إلى هذه المظاهر يموِّهون بها واقعهم بدلا من تغييره الجذرى، ويسترون عن عيونهم حقيقة أمرهم ودخيلة وعيهم.

خيلّ إليهم ضعف التمييز أن كل ما صحب هذه الوسائل هو من مستلزمات هذه الحضـــارة، فأخذوا يقبلون عليه، ويصطفونه ويناضلون دونه وكأنهم من أقطاب هـــذه الحضارة وروادها، بينما رواد الحضارة وأقطابها الأصليون فى شك وحيرة وبلبلة من أمرها.

وكـــانت النتـــيجة مسخا ثقافيا: نقل من أمشق أو ما يعادل النقل من الأمشق، وتشـــدق بالشـــعارات، وواجهات مستعارة وتلصيقات مجمعة بأسلوب تلفيقى لإزمات تتغير وتتبدل كما تتغير وتتبدل الأزياء، ويتخلف بعضها بتخلف أصحابه عن متابعة آخر الصيحات،

هـــذا كله نراه فى بيوتنا ومدننا الحديثة ومعاهد الفنون ومهرجاناتها، وإدعاءات بالـــتجاوب مع روح العصر، وعقليات مجافية لجوهر العصر.. ثقافة سُمعة وتحجر فى الخـــبرة وعجز فى النقد.. واكتفاء بالدعاية أو التشهير.. وفى أحسن الحالات شرح لبعض المدارس الخارجية فى الفكر والثقافة والفنون.

إلى جـــوار ذلـــك تغيير تصاعدى فى أسماء المدارس والمعاهد، تغيير تصاعدى فى الألقاب والدرجات المالية.. إنشغال بالسوق والكسب والتسلق للسلم الوظيفى، وتكـــتلات للحصول على مثل هذه الأمور، تضخم أعداد الفنانين المؤهلين رسميا وندرة الفنانين بالفعل، انتشار البطالة مزدوجة القناع: قناع الوظيفة بلا عمل ؟؟ وقناع المؤهل بلا مبرر.

إن الصـــورة الحقيقيـــة لما كان يرجى منه أن يكون نهضة حقيقية شهادة دامغة بالتـــبعية وتحقيق أسوأ عصر فى الإنتاج التشكيلى فى تاريخ البلاد.. حركة ثقافية عكسية لحركة التحرر السياسى والإقتصادى.

ويسبب هبوط الوعى الثقافى عند المثقفين عن المستوى المطلوب للتميز فى دائرة الفنون، تضليل الوعى الثقافى العام فى البلاد عن الأصل المطلوب من تحقيق للذات القومية جديد قوى وأصيل.

وهذا تخلّف مكرس
وأخطر ما يكون التخلف
عندما يتستر بإسم التقدم
وأخطر ما يكون الجهل
عندما يتستر باسم العلم

وأنضـــر مـــا يكـــون الأمل عندما يكون توسيع وتعميق البحث والعمل الخلاق وإدراك كنه صناعة التعليم هو الطريق. أما إذا كان الوعى لا يتعدى الأنا الصغيرة والبحث فى خدمة الأنا الصغيرة، والعمل الخلاق هو الذود عن هذه الأنا الصغيرة وكان الجهل بصناعة التعليم لصياغة النفوس الجديدة فلا أمل.

وعندما تلبس هذه الأنا قفاز الدولة بالوظيفة وهيلمان السلطة، تتحقق المأساة:
لأن التخلف أصبح مكرسا رسميا باسم الدولة
وبإسم المجتمع أصبح التخلف شرعيا.

وهذا نراه فى العمارة فى طول البلاد وعرضها، وفى الفنون الجميلة، وفى الصناعة فى جانبها التشكيلى، وكذلك الحال فى الإعلام والتعليم والثقافة العامة فى كل ما يختص بالفنون.

ومـــن المـــؤلم أن الحضارة المعاصرة - فى الوقت الذى تقدم فيه النتائج الباهرة فى مجال العلم والتطبيق العملى - تقدم تخلفا فى السياسة، وتخلفا فى الفنون.

ونحـــن نحـــاول لاهثين وبالمعونة الرسمية أن ننقل هذا التخلف فى الفنون ونكرسه

باسم الإصلاح المعاصر.

تصدر مجموعة الأفكار المسيطرة على توجيه سياسة التعليم فى الفنون الجميلة من وضع إنبهار بالغرب، وشعور بالنقص فى الإعتبار الذاتى، وقصور فى الوعى العالمى

ولا مـــناص من إعادة الاعتبار الذاتى، والبحث عن مقياس صحيح للقيم، وتفتح للوعى المتاح للإنسان اليوم.

لابد من بحث عن الدور الحقيقى للفنون..

وعن الكيفية التى تكتسب بها القيم.

وعن فقه معنى القيمة.

ثم لابـــد من وعى بعملية التعليم: إنها صناعة دقيقة، ولا يعقل أن تترك الصناعة للصدفة..

لابد من اعتبار للمكان الذى نعيش فيه

الكـــون، باعتـــباره أكبر وأهم عملية تشكيلية لا يجوز أن يغفلها من صناعتهم التشكيل.

وهـــذا البـــلد، باعتباره أرضا ذا تاريخ: أى حصيلة وخبرة ولا يجوز إهدار هذا التاريخ، وبنوع خاص فى الفنون عند أصحاب هذا التاريخ.

والتعلـــيم الراهن فى الفنون يقيم حائلا بين هذا التاريخ والمتعلم. كما يقيم حائلا بيـــنه وبـــين الناس، وبينه وبين الكون وما فيه من خلق طبيعى ليضخم فيه الأنا الصغيرة.

لابد من اعتبار للزمان الذى نعيش فيه:

يتيح هذا الزمان وعيا عالميا.. والوعى العالمى لا يعنى باريس أو لندن أو نيويورك.. ولكـــنه يعـــنى حصيلة تراث الإنسان فى كل الأمكنة والأزمنة.. ولا مناص من ادخاله فى الحساب لكى نكون معاصرين.. فلا تعنى المعاصرة أن نسير فى أعقاب الموضات.

لابد أن يكون لنا إسهام فى البحث عن حلول حقيقية لمشاكل الإنسان فى العلوم والفنون، وفى الناحية التشكيلية بالذات يحتم علينا تاريخنا القديم والوسيط أن تكون لنا إضافة فى العصر الحديث.

ولمجتمعنا بالذات حاجات ملحّة لابد من مواجهتها والإستجابة لها والبحث عن الحلول اللازمة:

مشكل الريف والنهوض به..

مشكل المواطن وكيف نمهد له الحياة الكريمة..

مشكل الصناعة الجديدة وماذا ينبغى أن نعد لها فنيا ، بتعميق الوعى بمعنى التشكيل.

وأخيرا وليس آخرا قيمنا الجديدة. أين مكانها من سياسة فلسفة التعليم؟ أليس التعليم من أهم وسائل تثبيت هذه القيم فى المجتمع الجديد؟

تتحول البلاد من التبعية إلى الاستقلال..

من مجرد دولة زراعية إلى دولة زراعية صناعية..

من مجتمع فردى رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى.

لهذا لزم البحث عن تأصيل الثقافة والخلاص من التبعية، ولزم رعاية نشأة حركة تصميم لكل ما يحيط المواطن نفسه به من مصنوع بحيث يحمل طابع الشخصية المتميزة للبلاد فى خلق جديد.. كما لزم الخروج من العمل الفردى المعزول إلى العمل الجماعى المتكامل - وللكل. ويتطلب هذا:

أولا :

الأساس الفكرى الجذرى الذى يتناول إعادة قراءة معنى الفن، وقيمة التراث وتحليله، وأزمات العصر، ومحاولة التفوق عليها فى هذا المجال بالذات.

ثانيا :

البحوث العلمية التى يتحقق بها الفكر الجديد.

ثالثا :

المـــثل المتكامل للربط بين الحياة والفن وبين مثل المجتمع الجديد والقيم الفنية الأصيلة.

هـــذا وقد اهتم مركز الفن والحياة بتوضيح معنى الشخصية المصرية والدعوة إلى البحث فى إعادة بنائها على نسق قوى أصيل وجديد. ولما كان الجانب التشكيلى من إنتاج هذه البلاد عبر العصور شاهد يدل على كنه هذه الشخصية، كان من الضرورى الاحتفال به من هذه الزاوية بالذات.

ولا يعـــنى هـــذا أن ننصرف عن ظروف التاريخ ودراسة الآثار أو أن ننقص من قيمة الفن ودقائق الصنعة، بل أن لا نقف عند هذا كله بل ننفذ إلى ما وراء ذلك كله: إلى أصله ومصدره.
ولعلنا - إن وفقنا بعض التوفيق - أن نتلمس الطريق إلى استيعابها - والهداية إليها كمـــنارة للإســـتنارة فى سعينا اليوم فى الحياة والثقافة والإرشاد فى العلم والتعليم والإعـــلام.. فى العمـــارة والصـــناعة ودقائق الحياة للتخلص من التبعية وتحقيق الانطـــلاق فى رحاب الحرية؛ لأن الحرية لا تقوم على غير الأصالة. وللشخصية أصل إجتماعى، وعمق تاريخى، وبُعد زمنى، وارتباط بمكان، وصبغة من عمل، ولكنها وعى ووعاء.. قدْر وقدَر، فيها معنى الحياة، وقيمة الإنسان، ومعيار الحرية للفرد، والكرامة للمجموع.
وبغير الشخصية لا تكون كرامة لمجموع ولا حرية حقيقية لفرد.

مفهوم الشخصية الشائع بالفعل والتحقيق ضامر مهزوز،
يعانى من أوجاع العصر..
يعانى من طغيان الفردية..
فينكر إنبثاق الفرع عن الأصل.. أى تنسى الورقة الشجرة.
يعانى من طغيان الجماعية..

فتجمد مقومات الجماعة: الحياة الحقيقية فى الأفراد.
يعانى من طغيان القيم المالية..
فتختزل إنسانية الإنسان.
يعانى من طغيان القوة..
فتضيع القيمة وتفقد الحياة المعنى.

والشخصية ثمرة حضارية، بل هى ثمرة الحضارة: شخصية المجموع وشخصية الفرد، ولهذا كانت أزمة الشخصية اليوم هى أزمة الحضارة العصرية.
وكانت أزمة الحرية هى فى نهاية المطاف أزمة الشخصية، على أن تدرك الشخصية فى أبعادها الأصلية باعتبارها رد الفعل الجوهرى تلقاء واقع الحياة.
فماذا كان رد الفعل التلقائى تجاه واقع الحياة هنا فى هذا المكان؟
ماذا كانت صورته الأولى؟
ماذا كان المعنى الأساسى للشخصية المصرية فى بلورتها الأولى على هذا الجزء من الكوكب، وفى مطلع التاريخ؟
ماذا كان عطاء هذا المكان لمعنى الحياة ومعنى الإنسان؟
والجواب واضح بسيط، ولكنه عميق الغور واسع الأفق، ومن الممكن أن يلخص فى لفظ واحد هو: الحضارة.
وليس من الغريب أن تكون كلمة مصر فى العالم تعنى أصل الحضارة.. أو الحضارة الأصل.
لقد كانت الإستجابة المصرية تلقاء واقع الحياة:
بكل رهبة هذا الواقع..
بكل خطره ووحشيته..
بكل صمته وإبهامه..
بكل إتساع فضائه وتناثر أجرامه ومطلقية صفاته..
بكل ظلمته ونورانيته..

بكل جدبه وينعه..

كـــانت الإستجابة التى بلورت فيها ذاتها المصرية هى: الحضارة الغاية والطريق.

وإلى هنا أمر لا اختلاف عليه، أو نرجو أن لا يكون هناك اختلاف عليه.

ويتبقى جوهر الموضوع، وهو معنى الحضارة.

كلـــنا نـــردد "أصالتنا الحضارية ذات العمق الممتد عبر آلاف السنين" ونود أن يـــتحقق أســـلوب فى التعريف بدقائق وأعماق هذا المعنى حتى لا يتجوف لفظ الحضارة ويتضخم ويتضاءل المحتوى حتى لا يكاد يرى.

الفصل الخامس

الفن والعلم والتجربة الدينية

تقديم

العالِم يعرف الطريق.

والفيلسوف يعرف القيمة ويصنع الجميل.

والمتصوف يسلك الطريق فى كل ما يصنعه إلى قمة القيمة.

والإنسان - كل الإنسان - عالِم وفنان ومتصوف، بقدر.

لهذا وجب الوضوح البللورى لمعانى العلم والفن والدين.

... ...

المقتبسات فى هذا الفصل من

- تاريخ العلم لأستاذنا مصطفى نظيف.
- رسائل إخوان الصفا.
- إحياء علوم الدين للغزالى.

الفن والعلم – ١

لم نتعلم بعد كيف نُعد الفنان:
يقتصـــر تعليمنا إياه على التدريب وتعريفه ببسائط المعلومات المفككة، وقشور التاريخ، لأننا لم نتعرف بعد أهمية الفن فى الحياة؛

نظن الفن تسلية ولهوا
وننسى أن الفن الذى نعرفه
هو ما علمنا إياه الفنان والذى
اقتصرنا فى تعليمه على التدريب
والتعريف ببسائط المعلومات وقشور التاريخ.

ونحن لا نعرف القديم الرفيع فى الفن إلا بالقدر الذى يسمح لنا به الفنان المعاصر.

ليس من صالح المجموع أن نهمل تكوين الفنان؛ لأن المجموع يسف فى مستواه مع الفنان المسف.

الفنان هو حاسة المجموع التى يحس بها الفن..
والعالم هو حاسة المجموع التى يحس بها العلم..
ورجل الدين هو حاسة المجموع التى يحس بها الدين.

وإذا لم نـــتعهد الفنان، والعالم ورجل الدين بالعناية الواجبة تسلطت علينا الخرافة بمعناها السىء فى الفن والعلم والدين.

لا نقصد أن ينشغل الفنان بحل المشاكل العلمية؛ "كليوناردو" و"جيته" و"الخيام"، أو أن ينســـج من المادة العلمية قصائد "كلوكريدس" وغيره من الشعراء، كما لا

نقصد أن يصبح الفنان شيئا آخر لا تتطلبه طبيعة الفن.

فالفن مطالب بتأمل جانب من جوانب الموجود،

لا يرفع الحجب من حوله غير الفن،

والفنان يعرفنا بهذا الجانب

وغايتنا أن يصبح الفنان أهلا لتأمل ذلك الجانب، ورفع تلك الحجب حتى يتجلى لنا الموجود كامل الجوانب.

روح التقليد من المسائل الهامة المهملة فى تعليم الفنان؛ لابد من تعرف شتى تقاليد الإنسانية فى الفن تعرفا فى نور مجموعة العلوم المختلفة التى تساعد على فهم تلك التقاليد من تاريخ طبيعى للإنسان.. ومباحث أثرية.. ودراسات نفسية.. ومذاهب النقد.. ونظريات الفن والجمال.. والعلاقة بين مذاهب الفكر والفن والاجتماع، بل فى نور فوق هذا النور.

كما أنه لابد من تعرّف عصرنا الحاضر.

سيفيدنا تعرّف عصرنا الحاضر التنبه لمشاكله، حتى نتأهب للمساهمة فى حلها والتفوق على عصبيته.

ولا يكفى لتعرّف الحاضر مجرد المعيشة فيه، كما يسبق النابغ العصر يتأخر الكثير من الناس عن العصر.

للماضى فى الحاضر كثير من البقايا الميتة. والفن الرفيع يرينا الخالد خلال رموز العصر العارضة، ويكتسب من مشاكل العصر الحافز والدافع.

سنتناول من مظاهر الحياة فى العصر الحاضر، العلم.

العلم الحديث هو أكبر إضافة أضافها العصر الحديث إلى تراث الإنسانية سيذكرها التاريخ.

يتغير مفهوم العلم بتغير المعلوم والعالم والعصر.

العلم كما نفهمه اليوم ناشئ وإن امتدت جذوره فى أعماق التاريخ.

العلم فى الوقت الحاضر

مرجعه الملاحظة والتجربة

ومصدره الملاحظة والتجربة.

آلته الذهن وله حدود الذهن.

لا يبحث فى الماهية وغايته شرح الكيفية.

راغب عن العلل الأولى،

وراغب فى العلل الفاعلية.

لا يسأل عن الغاية فى الحياة،

وليس فى مقدوره أن يفسر معنى الحياة.

عاكف على الظاهر، غافل عن الباطن.

لا يعترف إلا بما يمكن أن يثبت،

ولا يثبت إلا ما يمكن أن يعرف به الكل.

العلم فى العصر الحاضر تغلب عليه الرغبة فى السيطرة أكثر مما تشيع فى كيانه عاطفة الحب.

التفكير العلمى مخاطرة ذهنية قد تنجح وقد تفشل بعد نجاح محدود. وراء العلم إيمان بانتظام العالم. وبأن المستقبل مكنون فى الحاضر.

العلم لا يفسر العالم،

والمدركات الخاصة التى يقف عندها العلم تحتاج فى ذاتها إلى تفسير. يحاول العلم فى العصر الحديث وصف الكون فى أبسط صورة من القوانين.

الظاهرة فى العلم حالة خاصة من حالات كثيرة ينظمها قانون واحد؛ فالعلم يرتب الظواهر الشاردة فى نطاق قوانين مفهومة. وهو يبيِّن الظاهرة كحلقة فى عملية مستمرة، أو كجزء من ظاهرة أشمل، كما يحلل نفس الظاهرة إلى غيرها أبسط منها. ويرتب الظواهر من ناحية العلاقة السببية

والأسباب فى ذاتها ظواهر.

والسبب فى نظر العلم هو شرط الحدوث.

الـــتجرد مـــن العـــامل الفنى والدينى. وكل ما لا يمكن إثباته بالدليل العلمى من المعـــتقدات، هـــو الرياضة السلبية للعالِم. العلم يتأمل جانبا واحدا من جوانب الموجود.

يســـعى العلم دائما إلى توسيع حدوده، ولكن حدود العلم لا تحد الدين أو الفن، كمـــا أنهـــا لا تحد الحياة. والكثير من العلماء فى الوقت الحاضر يشعر بهذا تمام الشعور.

معـــرفة رجال العلم بحدود العلم مظهر من مظاهر القوة، لا علامة من علامات الضعف والفتور

لا تستقيم الحياة إذا تسلم زمامها
العلم وحده، أو الدين وحده،
أو الفلسفة وحدها، أو الفن وحده.

العلم الجديد يفيد عقلا جديدا.

العـــلم نوعـــان: علم للنفع والاختراع، وعلم للعلم بنظم الطبيعة والحياة ومتعة الكشف.

لم يفتخر "أرشميدس" بآلاته كما اعتز بتأملاته.

لم يسع "كلارك" و "فاراداى" و "مكسويل" فى أبحاثهم وراء غايات نفعية.

بعض نتائج البحث العلمى الحر تتحقق له فرص نفعية على مر السنين.

ظـــلت تأملات الإغريق فى الهندسة المخروطية ثمانية عشر قرنا قبل أن يستعملها "كبلر" فى قوانينه وقبل أن تستخدم فى بناء القناطر وفى رمى المقذوفات.

يُعير العلم حواسنا من الإمتدادات والقوة ما جعل الأسطورة فى هذا العصر تتعانق مع الواقع.

المستور أكبر من المنظور، والعلم يريبا جانبا من المستور إلى جانب المنظور.

لو أننا نتمكن من أن نضيف - فى تكامل واحد - إلى ما تراه العين المزودة بالفن، ما يراه العلم، ونحيط هذا بما يمكن الدين أن يراه، والفلسفة أن تمهد السبيل إليه، لعرفـــنا جانـــبا من الفارق بين الإنسان الجزء الذى نعيشه الآن والإنسان الكامل الذى نتطلع إليه.

إذا تباعد الفارق بين الأمل والواقع، فليس من الحكمة أن نضحى الأمل فى سبيل الواقع.

الفن والعلم – ٢

الفن نموذج الحياة:
الحياة الغزيرة تجعل من العالم، والمتصوف، والساحر، والحالم، ومؤلف الأسطورة والخرافة، فنانا برغمه وعلى غير وعى منه.

الصــور المتباينة المختلفة عن الحياة، والتى تملأ طريق الإنسانية فى خلال التاريخ، لون من ألوان الفن.

تولــدت هــذه الصور من اتصال الإنسان بالطبيعة واللامحدود، ولها من الحقيقة والجمال مثل نصيب الشعر والعمارة والتصوير. وتتطلب الحياة أن يكوِّن الإنسان لنفســه صــورة عنها، يلتئم فى داخلها مجموع مدركاته، ويسعى هو فى ظلها، وتكــون له بمــثابة البيت يسكن إليه. ولا يلبث الإنسان أن يضطر إلى تغيير هذا المســكن أو تعديله أو هدمه من أساسه ليعيد بناءه من جديد كلما تغيرت هذه المدركات. وسواء أمَّن العلم بمعناه الحديث أو لم يؤِّمن على تفاصيل تلك الصور، ونصيب مطابقة خبرها للواقع، فإن نصيبها من الجمال والروعة قائم لا يتحول.

العــلم فى طوره الحديث لا يشذ عن العلم فى أطواره الأخرى: ينبوع من منابع الحياة. والحياة أينما تدفقت بغزارة تسلك مسلك الفن.

رأى الإنســان الــبدائى الحيــاة على الأرض، وفى الماء والهواء، وفى كل صور الكائــنات آدميــة أو غــير آدمية، متحدة الأصل متجانسة الصفات، تشيع فى أجزائها قوة واحدة غريبة تجمع بين المادية والروحانية.

وتـــتركز هذه القوة بدرجات متفاوتة فى مختلف الكائنات، فتفيض رهبة وروعة وتختلف فى موقفها بإزائه، من نية خير له أو شر نحوه:
رأى الشئ الواحد يتحول إلى أشياء كثيرة.
رأى قرابة اللحم والدم تربطه بالحجر والشجر تارة، والحيوان تارة أخرى.
رأى الأحجار تنمو وتلد وتتحرك من تلقاء نفسها.
رأى الأشجار تنتقم.
كما رأى الشئ الواحد فى أماكن متعددة فى اللحظة الواحدة.

من السهل أن نقرأ عن وجهة النظر البدائية إلى الطبيعة حيث لا فاصل بين الشخص والموضوع ومن الصعب أن نرى الطبيعة بنفس النظرة.

والـــنظرة المضادة لهذه النظرة هى نظرة العالم الطبيعى الحديث إلى الأشياء، حيث هـــناك الفصـــل كل الفصل الممكن بين الشخص والموضوع، وحيث الطبيعة فى نظـــرته عارية عن الشكل واللون، خالية من النور والصوت، مجردة من كل شئ عـــدا أمواج من المادة والطاقة فى لا زمان ولا مكان يمكن أن يتصوره العقل بغير علاقات الأرقام.

مـــا زال الشـــاعر فى الوقت الحاضر يرفع لواء النظرة البدائية محررة من قيودها، فبيـــنما تستقر وتتحجر نظرة الرحل البدائى فى اصطلاح ثابت، لا تعرف نظرة الشاعر التحجر أو الاستقرار فى اصطلاح ثابت.
يسوق الشاعر الخرافة.
وتسوق الخرافة الرجل البدائى.

رأى "فيـــثاغورس" – ورأى معـــه الفيثاغوريون – أن الأشياء قوالب لا ثبات لها والنفوس باقية خالدة.
رأى النفوس تنتقل من قالب إلى قالب.
ورأى الأجرام السماوية مساكن الآلهة.
رأى النفوس والأبطال والآلهة جميعها صادرة من أصل واحد.

ورأى تطهـــير النفس بالاعتدال والرياضة ضمانا لعودة النفوس إلى المصدر والمحل الأول.
رأى الأجرام السماوية معلقة فى الأفلاك، ورأى الأفلاك كرية بللورية شفافة لأن الكرة أكمل الأشكال.
رأى الكـــون وفى مركزه النار المركزية ومن حولها الأرض، وفى مقابلها الأرض المقابـــلة والشـــمس والقمر والكواكب المتحيرة والنجوم الثوابت.. رآها جميعها تـــتحرك فى أفلاكها الكرية وتمثل لحركة أفلاكها حفيفا وصريرا تسمعه النفوس الصـــافية. رأى الأجرام السماوية والعلاقات بين أقطار أفلاكها وقطر الأرض فى قربها وبعدها على نسب موسيقية متوافقة. رأى القبح والجمال فى التشكل واللون نتيجة لإحكام النسبة الموسيقية التى تجتمع عليها الأخلاط أو عدم إحكامها.

رأى الفيثاغوريون فى الأعداد أصول الأشياء.
ورأوا لكل عدد من الأعداد وجودا ذاتيا ذا صفات:
فالواحد هو أصل العدد ومنشأه: منه يصدر وإليه ينحل.
والموجودات تنشأ من وجود الله كما تنشأ الأعداد من وجود الواحد.
والإثنين عدد غير كامل وهو أول الكثرة.
أما الثلاثة فعدد كامل لكونه ذو بداية ونهاية ووسط.

رأى الفيثاغوريون الكمال فى الأعداد الأربعة الأولى، وأنها أصل الأشياء:
فالله والعقل والنفس والهيولى أربعة،
والمكونات من حيوان ونبات ومعدن وإنسان أربعة.
أما العشرة فهى مجموع الأعداد الأربعة الأولى.

ما زالت الرياضة فى العصر الحاضر عامود العلم.
وما زال الرياضى فى العصر الحاضر هو الفيثاغورى نصفه للعلم ونصفه للتصوف.

رأى إخـــوان الصـــفا الله تعالى نور الأنوار، ومحض الوجود، والعقل نور البارى

وفيضه، والنفس نور العقل، والهيولى الأولى ظل النفس.
رأى الصـــور المجـــردة كأنها النفوس والأصباغ والأشكال التى صنعتها النفس فى الهيولى بإذن الله وتأييده لها بالعقل.
رأى النفس فى عالمها الروحانى ومحلها النورانى مقبلة على علتها - العقل الفعال - تقـــبل منه الفيض والفضائل والخيرات، فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات أقبلت بدورها تطلب ما تفيض عليه تلك الخيرات والفضائل.

رأى الله تعـــالى مكّنها من الجسم وهيأه لها، فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك، وأطـــباق السماوات، وركب الأفلاك بعضها فى جوف بعض، وجعل الكواكب مراكـــزها، ورتـــب الأركان مراتبها على أحسن نظام مما هى عليه الآن، لكى يسهل على النفس إظهار أفعالها وفضائلها والخيرات التى قبلتها من العقل الفعال.
رأى الأرض بجميـــع مـــا عـــليها من البحار والجبال والبرارى والأنهار والعمران والخراب كرة واحدة معلقة فى الهواء.
رأى هذه المواضع تتبدل على طول الدهور والأزمان؛ وتصير مواقع الجبال برارى وفـــلوات، وتصـــير مواقع البرارى بحارا وغدرانا وأنهارا، وتصير مواضع البحار جبالا ورمالا، وتصير مواضع العمران خرابا، ومواضع الخراب عمرانا.

رأى الـــبروج الإثنى عشر تدور دورة واحدة كل ستة وثلاثين ألف سنة فتختلف مسامتات الكواكب، ومطارح شعاعاتها على بقاع الأرض وأهوية البلاد وتبديلها بالصفات من حال إلى حال.

رأى الطـــبيعة قـــوة من قوى النفس الكلية، ورآها منبثة عنها فى جميع الأجسام. ورآهـــا تسمى باللفظ الشرعى الملائكة الموكلين بحفظ العالم وتدبير الخليقة بإذن الله، وتســـمى باللفظ الفلسفى قوى الطبيعة، ورآها مؤثرة فى هذه الأجسام بإذن البارى جل ثناؤه.

رآهـــا تنقش وتصور وتصوغ من المزاجات والأخلاط أجناس الكائنات التى هى

الحيوان والنبات والمعادن.

ورأى آخر مرتبة الظواهر المعدنية متصلة بأول مرتبة النباتية..

وآخر مرتبة النباتية متصلة بأول مرتبة الحيوان..

وآخر مرتبة الحيوان متصلة بأول مرتبة الإنسان..

ورأى آخر مرتبة الإنسانية متصلة بأول مرتبة الملائكية

الذين هم سكان السماوات وقاطنوا الأفلاك.

رأى النفس الجزئية إحدى تلك القوى المنبثة من النفس الكلية السارية فى العالم وقد بلغت إلى المراكز وانصرفت ونجت من الكون فى المعادن أو فى النبات أو فى الحيوان.

رآها وقد جاوزت الصراط المنكوس، والصراط المقوس،

ورآها وهى على صراط مستقيم آخر درجات جهنم.

رأى النار وجهنم وهى ذاتها عالم الأجسام، حيث الكون والفساد والتغيير والاستحالة، رأى الجلود كلما نضجت بدلت بجلود غيرها.

ورأى الجنة عالم الأرواح صور روحانية لا هيولى جرمانية بل حياة محضة؛ راحة ولذة وسرور وغبطة لا يعرض لها الكون والفساد.

رأى غرض الأنبياء وواضعى النواميس أجمع غرضا واحدا وقصدا واحدا وإن اختلفت شرائعهم وسننهم ومفترضاتهم وأزمان عباداتهم، وأماكن بيوتاتهم وقرابينهم وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد ومقصد واحد فى حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة وإن اختلفت علاجاتهم بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأبدان فى الأوقات المختلفة والعادات المتغايرة والأسباب المفننة من الأهوية والبلدان.

رأى العالم الجسمانى تفارقه النفس.. والفلك يسكن عن الدوران والكواكب تسكن عن السير والأركان تمتنع عن المزاج والاختلاط.

رأى النبات والحيوان والمعادن تبلى، ورأى الجسم يخلع الصور والأشكال والنقوش.

رأى النفس تعرض عن الجسم، وتقبل نحو عالمها. وتلحق بعلتها الأولى وتتحد به.

رأى قوى النفس الكلية إذا سرت فى الأفلاك والكواكب والأركان والمولدات وبلغت إلى مركز الأرض من أقصى مدى غاياتها، ومنتهى نهاياتها، عطفت عند ذلك راجعة نحو المحيط وهو المعراج والبعث والقيامة الكبرى.

التاريخ حافل بالكثير من أمثال هذه الصور التى يشترك فى بنائها الذهن.. والفن.. والدين.

وعصرنا لا يسعى نحو تكوين أمثال هذه الصور المتكاملة برغم حاجاتنا لأمثالها، لأننا نتطلع دائما إلى الوحدة.

الصور التى يسمح بها عصرنا للآن صور جزئية أو مهشمة أو لم تتوازن فيها العناصر البانية.

ويقف فى سبيل تحقيق أمثال هذه الصور الكثير من المذاهب الفكرية التى تختار من التركيب النفسى للإنسان جزءا أو بضعة أجزاء، وتغفل البقية من الأجزاء الهامة.

الصورة العلمية التى يسمح بها عصرنا أكبر وأروع من أية صورة تناظرها تهيأت لأى عصر من العصور السالفة، وهى تتطلب من الإطار الفنى والدينى والخلقى أوسع إطار.

إذا كان الفن فى العصر الحديث لا يرتفع إلى قيمة الفن فى العصور القديمة، فإن العلم فى العصر الحديث يزيح الستار عن قمة هى فى الروعة والجلال صنو القمة التى يعرفنا بها الفن القديم.

لكى نتمكن من تعرّف الصور التى يثبتها أمامنا العلم فى هذا العصر ينبغى أن نفرق بين العلم وبين رجل العلم:

العلم فى العصر الحاضر لا يسأل عن الغاية فى الحياة.
وليس فى مقدوره أن يفسر معنى الحياة.
العلم يرينا المستور إلى جانب المنظور فى حدود الذهن.

وعـــندما يتعرض رجل العلم لتحديد الغاية من الحياة أو تفسير معنى الحياة فالذى يحكم هو الرجل وليس العلم.

العلم تكملة للعين وليس هو التكملة الوحيدة
لا يخرج العلم عن مجرد وصف الكائنات التى يمكن أن يلمسها الذهن. والقوانين العلمية هى الوصف المختصر، والعلاقات التى يكشفها العلم بين الموجودات التى يلمسها الذهن تكوِّن حدود العلم الحديث:
لا تخـــرج هذه العلاقات عن بيان الظاهرة كحلقة مستمرة أو كجزء من ظاهرة أشمل، أو تحليل الظاهرة إلى غيرها أبسط منها.

العلم لا يلمس القيم:
الحب.. والخير.. والجمال خارج نطاق العلم بمعناه الحديث.
وإذا حكّمنا العلم
فالحب هو العلاقة الجنسية.
والخير هو بناء الأصلح.
والجمال هو تمام الوظيفة.
ولكـــن الذى يحكم فى هذه الحالة ليس هو العلم؛ فضيلة العلم هى الصمت عند التفضيل بين القيم.. فضيلة الذهن أن يسرد ما يراه من حقائق، غير متأثر بنصيبها من الخير والشر.. من الجمال والقبح.. من الحب والبغض.

تفيض الحياة على الذهن عندما يقرر ما يراه من الحقائق دون مراعاة لنصيبها من الخـــير والشـــر والجمـــال، نصيبا وافرا من الحب الشامل والخير المطلق والجمال السامى الرفيع.

عـــندما تتســـلط علينا الخرافة فى تفهم معنى الحب والخير والجمال تنحط الثقافة وتتهيأ الفرصة للذهن.

تخرج زهرة العلم فى آخر مواسم الثقافات المنحلة وتحمل بذور الثقافات المشرقة.

الفن والعلم – ٣

يكتمل التفكير العلمى بمعناه الحديث فى القرن السابع عشر، وينحل التفكير الفنى من بعد هذا العصر.

شاهد القرن السابع عشر "نيوتن" و "بيكون" و "هارفى" و "كيلر" و "جاليليو" و "ديكـــارت" و "بســـكال" و "بويـــل"، كما شاهد "رمبرانت" و "إلجركو" و "بوسان" و "كلود" و "روبتر" و "فلاسكس".

أخـــذت الحـــركة العـــلمية فى الازدياد والتوسع فظهر من العلماء "لابلاس"، و "لافوازيـــه" و "كافـــندس" و "جـــول" و "كارنوت" و "كلفن" و " أمبير" و "مكســـويل" و "فارادى" و "جاى لوساك" و "مندل" و "باستير" و "داروين" و "ليل" والكثيرون غيرهم.

وابـــتدأت الفكرة الفنية فى الضمور والانحلال فيمثلها مجموعة من الفنانين الممتازين ولكنهم دون الطبقة الأولى بسفر طويل أمثال "جاردى" وكانالتو" و "فراجونار" و "واتو" و "جويا" و "بوشية" و "رينولدز" و "بليك" و "آنجز" "وديلاكروا".

عاصرنا فى وقتنا الحاضر "رذرفورد" و "يافلوف" و "بلانك" و "بور" و "فرويد" و "أينشتاين" وغيرهم من عظماء العلماء.

وعاصرنا من الفنانين الممتازين والذين هم – رغم حماسة النقد الحديث ورغم ما يستحقونه من تقدير كبير – دون الطبقة الأولى من الفنانين بقدر كبير.

كل التفكير الفنى بعد القرن السابع عشر نتيجة لفكر منحل.

عـــندما نجيـــل النظر فى تاريخ الأنماط، ونقارن أنماط القرون الوسطى والنهضة والـــباروك والروكوكو ثم بفن العمارة الحديث نلحظ بوضوح أن كل طراز من هـــذه الطـــرز يحتوى على ما هو أقل من القيم الروحية.. فن العمارة فى الوقت الحاضـــر هندســـة بناء فيه من التهوية والنظافة والإضاءة ومهارة التركيب الكثير وفيه من القيم الروحية النادر القليل.

وإذا لاحظنا فن التصوير ينحدر

من "مساشيو" و "رمبرانت". إلى "دومبير" و "جويا" و "شاردان"..

ومن "تتيان" إلى "روبتر" و "واتو" و "فراجونار" و "بوشيه"..

ومن "بيرو دلاّفرانشكا ومايكل أنجلو" إلى "سيزان" و "بليك"..

ومن "تنترتو" إلى "دلاكروا"..

ومن "رافابيل" إلى "آنجر"..

ومن "كلود" إلى "كورو" و "ترنر" و "جينسبرو"..

ومـــن هـــؤلاء إلى الأمبرشترم والتكعيب والسيريالزم، فإننا نشاهد كيف تنحل الفكرة الفنية وتصبح عناصرها المكونة لها أقل ما يمكن.

نحن نتطلب من الفن أن يكون معادلا للنفس فى حدود طاقته.

والنفس أوسع دائما مما نظن ومما نتصور:

المـــدارس المختـــلفة مـــن العـــلماء الباحثين فى علم النفس الماضى وما يزخر به والمستقبل وما سيزخر به من مثولوجيات وديانات وفنون شتى وصناعات متنوعة وعلوم مختلفة، كلها تكوِّن صورة النفس التى يجب أن يوازنها العمل الفنى الغنى.

الكاتدرائيات القوطية..

والمعابد المصرية..

والكنائس البيزنطية..

الإلياذة، والشاهنامة، والرامايانا، والمهابهاراتا..

"دانتى".. و"شكسبير أمثلة للأعمال الفنية الغنية.

عندما نتأمل فنا غنيا، نوشك أن نرى الغنى الوافر للنفس منعكس فيه.
وعـــندما نقبل على فن ضامر، لا نتعرف إلا خلاصة ضئيلة من الوفرة التى تحفل بها النفس.

الفن القوى كالحبل المشدود الجدْل، الكثير الخيوط وإن لم تظهر خيوطه الكثيرة.
والفـــن بعـــد القرن السابع عشر قليل الخيوط ويعكس صورة للنفس قليلة الغور تزداد فى الفقر والضعف كلما تحدد إدراكها وتبعثرت عناصرها.

الدنيـــا الحديـــثة تبعـــثر عناصر النفس وتحدد إدراكها لأنها تقوم على سند من الأضداد:

العـــلم والدين.. الروح والجسد.. هذا العالم والعالم الآخر.. الشعور واللاشعور.. الخاص والعام.. الفكر والإحساس.. العقل والعاطفة والفرد والمجموع.
يظهـــر هذا البناء على الأضداد التى لا داعى لتضادها فى الفلسفة والسياسة كما يظهر فى الفن.

من "ديكارت" و "سبينوزا" حيث العقل المجرد والذهن،
إلى "بيكون" و "لوك" و "روسو" حيث التجريب والإحساس.
من الفوضوية حيث لا حكومة،
إلى النازية حيث لا فرد.
من الإمبرشنزم حيث السيد الأول هو العين الحاسة،
إلى السيريالزم حيث اللاشعور المستور هو صاحب الرأى.
من "فرويد" إلى السلوكية.
من الكلاسية إلى الرومانسية.

ويطالعـــنا مـــن خلال هذه الحركات الجزئية العجز عن التكامل الذى يصاحب الدنيـــا الحديـــثة، والذى أصبح الطابع الخاص نتميزه فى كل ما تنتجه هذه الدنيا الحديثة من علوم وفنون وفلسفات ونظم فى الحياة والاجتماع.

ونتميز هذا الطابع الخاص بوضوح فى أهم إنتاج للدنيا الحديثة وهو الفرد.

العــلم الحديــث الــذى هو أكبر إضافة أضافها العصر الحديث إلى بناء الثقافة، يتطــلب أن تتلاشــى شخصية الفرد، ولكنه يتقيد بالذهن. والعلم القديم على خلاف العلم الحديث وإن لم يقتصر عليه: إعترف العلم القديم بالعلوم التى يرشد إليهــا العقل مثل الحساب، والتى ترشد إليها التجربة مثل الطب، وما يرشد إليه السماع مثل اللغة، وسماها العلوم التعليمية.

الأســاس الــذى يقوم عليه العلم الحديث اشترك فى بنائه علماء الإسلام، كما اشترك فى بنائه الإغريق والمصريون القدماء وغيرهم.
"نصير الدين الطوسى"، و "محمد بن موسى الخوارزمى" و "أبو جعفر الخازن"، و "أبــو الــريحان البيرونى"، و "الحسن بن الهيثم" من الأسماء الهامة فى تاريخ العصر الحديث.

لم يمض على قيام الإسلام قرن واحد، حتى ابتدأ بالنظر فى الكتب اليونانية العلمية .. ولمــا تم نقــل هذه الكتب أخذ المسلمون وغيرهم بدرسها والمذاكرة بما فيها.. وجرّهم ذلك إلى التلخيص، والشرح، والتعليق، ثم، إلى التأليف والإبداع:
كــان للرياضيات وعلم الفلك المبنى على البراهين الهندسية نصيب كبير من عناية العلماء والفلاسفة فى دولة الإسلام.
وكــانت بحوث العرب فى بعض موضوعات علم الطبيعة بالغة درجة كبيرة من الدقــة والوضــوح تجعل الفارق بينها وبين ما اعتدناه من البحوث العصرية فى الموضوعات نفسها، طفيفا لا يكاد يذكر.

رأى العلم القديم – إلى جانب علوم العقل والتجربة والسماع وما إليها من العلوم التعليمية – علوما أخرى جديرة بالبحث والتعقيب لا يعترف بها العلم الحديث:
رأى مــنها ما هو "نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته. ورأى أمورا كثيرة تنكشــف مــن ذلك النور، فتحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات

الـــتامات، وبأفعاله، وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة، ودرجة ترتيبه للآخرة على الدنيـــا، والمعرفة بمعنى النبوة والنبى، ومعنى الوحى، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، ومعرفة القلب، ومعرفة الجنة والنار وعذاب القبر، والصراط، والميزان، والحساب، ومعنى لقاء الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى، ومقارنة الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض، كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء."

رأى كـــل هذا ممكنا فى جوهر الإنسان، لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا.

ورأى تطهير النفس وتصفيتها بالكف عن الشهوات، والاقتداء بالأنبياء فى جميع أحوالهم، فبقدر ما يتجلى فى القلب ويحازى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه.

ورأى هـــذه العلوم لا تسطر فى الكتب، ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشئ منها إلا مع أهله؛ وهو المشارك فيه، على سبيل المذاكرة وبطريق الإسرار.

ورأى مـــن العـــلم علم أحوال القلب؛ كالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والرضـــا، والـــزهد، والـــتقوى، والقـــناعة، والسخاء، ومعرفة المنة لله فى جميع الأحوال، والإحسان، وحسن الظن، وحسن الخلق، وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص.

ورأى أن لا ســـبيل إلى تصفية النفس إلا بالرياضة: وفرّق بين العلم الحاصل قبل الإتصـــاف والعـــلم النافع الحاصل بعد الإتصاف. فلا يزال العبد يتقرب إلى الله بالـــنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به..

كما رأى كل عمل ليس فى سبيل الله هو فى سبيل الشيطان أو داع إليه.

عـــندما ننظر إلى الحياة من قمة العلم القديم، نرى العلم الحديث دراسة الوسائل، بل دراسة القليل من الوسائل.

العمارة الإسلامية تعكس العلم القديم،
والعمارة الحديثة تعكس العلم الحديث.
العلم الحديث لا يتميز القيم العليا، والفن محيطه القيم.
ليس الموجود هو المفهوم فحسب.. من الموجود مالا يتيسر للفهم.
نصيب القيم من الوجود لا يقل عن نصيب الملموس أو المفهوم.
تأمل الفن القديم من القيم ما يختص بما وراء الفرد.
وتأمل الفن الاغريقى من القيم ما يختص بالإنسان.
ويتأمل الفن فى العصر الحديث ما يختص بالفرد.

الفن والعلم – ٤

يستلفت نظر من اعتاد المتاحف المصرية – حيث القدم. وغموض مكانة الفرد مع قصـــور الموجـــود عـــلى إنتاج الثقافات التى عاشت بالبلد ذاتها – عندما يدخل متاحف الخارج فى البلدان الأوروبية، إلى جانب حداثة الثقافة واتصال حلقاتها – بـــروز مكانة الفرد كدعامة ظاهرة فى بناء الثقافة.. وجمع المتاحف للآثار الثقافية من نواحى العالم فى مختلف العصور.

إذا تناولنا العلم بدراية كافية، يمكن أن نشير إلى مرجع كل فكرة من الأفكار التى تكـــوّن المادة العلمية اليوم، ويمكن أن نتتبع تاريخ الفكرة الواحدة ونموها من فرد إلى فرد، والدفعات المختلفة التى حدثت لها، ومَن بالضبط الذى قام بالدفعة ومتى كان ذلك الدفع:
يمكـــن أن نـــتعقب البحث من "كوبيرنيكس" إلى "جاليليو" و "تيحوبراهى" و "كبـــلر" و "ديكـــارت" و "نيوتـــن" حيث تهيأ التكامل الأول فى فهم الظواهر الطبيعية.
كمـــا يمكـــن أن نـــتعقب نشأة مدرسة البندقية (فينيسيا) فى الفن من "بليني" و "جورجيونى" و "تتيان" إلى "روبنز" و "واتو" و "فراجونار" و "رنوار".
ويمكـــن هـــذا أيضا فى الفلسفة والآداب، وفى الاختراع، وفى الكثير من الأفكار الشائعة بين الناس.

العـــلم فى العصـــر الحديـــث موضوعى رغم معرفتنا بإضافة كل فرد، لأن العلم يتطلب أن تتلاشى شخصية الفرد.

يتطلب العلم التخلص من كل ما هو خاص مقيِّد للفكرة العلمية والانتفاع بكل ما هو هبة خاصة، فتقوِّى الفكرة العلمية.

العلاقـــات الموجودة بين مظاهر الطبيعة تتطلب نظائرها .. المواهب المغروسة فى نفوس الباحثين.

يتطلب الفهم المثالى للعلم أن نفرق بين العلم وبين رجل العلم.

العـــلم هو وصف الكائنات التى يمكن أن يلمسها الذهن. والقوانين العلمية هى الوصف المختصر.

تـــتحدد موضـــوعية العلم داخل نطاقه الخاص بحدود أخرى: الآراء السائدة فى العصـــر ومـــا تتمـــتع به من حصانة تحميها، ووسائل البحث؛ من طرق الدرس وأجهزة المعمل، من العوامل التى تحدد موضوعية العلم داخل نطاقه الخاص.

الفن كالعلم، طريق أساسى للمعرفة، وله موضوعية كموضوعية العلم.

الفن كالعلم وراء الكلى

إلا أن الكلى فى العلم غيره فى الفن

الكلى فى العلم هو القانون

والكلى فى الفن هو القيم

ظواهر الحياة فى نظر العلم حالات خاصة من قانون عام..

وهى فى نظر الفن رموز لحقائق تسمو على ظواهر الحياة:

الوحـــدة والكمـــال والحيـــاة والمجد والصمود والقدرة والجلال والكرم والغنى والإبداع والنورانية والبقاء والسعة واللطف والرفعة والعز والسلام والعدل والقهر والمتانة، من القيم التى يعمل الفن على الكشف عنها وتركيب وقعها فى النفس.

والفن الرفيع يجمع بين هذه القيم وغيرها من القيم المتعددة الكثيرة فى نفس العمل الواحد.

ليـــس فى الإمكان تحليل كل علم فنى إلى عدد محدود من الصفات، العمل الفنى

الـــرفيع قـــد يمتنع عن التحليل ويتطلب الصمت. الصمت الذى يعرفنا به العمل الفنى الرائع هو صمت عامر بالقيم.

الـــلغة تعبير عن مجموعة محدودة من المعانى. ولغة الحياة فى الطبيعة والفن لا تحيط بها لغة اللفظ.

تتجـــلى هـــذه القـــيم وغيرها فى كل ركن من أركان الحياة، وينصرف الفنان، وتنصـــرف المدرســـة الفنية وينصرف العصر إلى تأمل مجموعة منها ، كلّ على حسب النور المعطى له، فتختلف المدارس وتتباين النزعات.
التعـــبير الناجح الناتج عن التأمل المتكامل لأية مجموعة من هذه القيم هو ما نطلق عليه لفظ الجمال.

العمل الفنى الناجح يعمل وقعه فى النفس
مستقلا عن الفنان.

نحن نستجيب للأعمال الفنية من العصور المختلفة لأن العمل الفنى هو عقدة من القـــيم الـــباقية فى الحياة. ويمتاز عمل عن عمل بتفوقه فى تمثيل تلك القيم فى أتم الحالات، كما يمتاز بتفوق مجموعة من القيم عن مجموعة أخرى.

يـــبدو نصيب الفن القديم من الموضوعية أكبر من غيره، لأن القيم التى توافر على تأمـــلها لها نصيب من الموضوعية أكبر من نصيب القيم التى توفر الفن الإغريقى عـــلى تأملها، كما أن هذه لها نصيب أكبر من القيم التى توفر على تأملها العصر الحديث.
كمـــا تختلف موضوعية العلم فى الطبيعة عنها فى علم الحياة عنها فى علوم النفس والتاريخ.
تتطـــلب القـــيم التى توفر الفن القديم على تأملها بطبيعتها أن تتلاشى شخصية الفرد.
لا يمكن أن نتعرف على ما وراء الفرد طالما نحن فى نطاق الفردية المحدود.

الفن الحديث كالفن القديم يجب أن يكون موضوعيا، ولكن يستر موضوعية الفن الحديث قصور الفنان فى الأداء، أو ازدياد مهارته، أو شدة تعلقه بفردية الموضوع، أو إنزواء الفنان داخل فرديته الخاصة برموزها المحبوس عليها.

بينما يسعى العلم فى العصر الحديث نحو الموضوعية بتعاون الأفراد وتكميل الآلات، والكشف عن طرائق البحث المختلفة ، يتحرك الفن فى العصر الحديث فى عكس الاتجاه نحو الشخصيةالضيقة الحدود.

يستر موضوعية الفن فى هذا العصر ضعف الفن المعاصر.
كما أن تفاوت الناس فى التقدير الفنى مما يطمس موضوعية الفن.
هنالك مجال للرقى فى التقدير الفنى، ومجال لتوسيع التجربة الفنية لغير الفنان كما أن هناك هذا المجال للفنان.

الكسل الثقافى هوالمسئول عن الرأى المشهور فى التقدير الفنى.
ولو انتشرت الثقافة الفنية ، لما كان هناك منتج ومستهلك فى عالم الفن.

ليست الرؤية هى الغاية من صحبة العمل الفنى، إنما التأمل هو الغاية:
عندما ينظر المتأمل النابه إلى العمل الفنى تتجاوب فى نفسه سلسلة من المعانى المتوازية لم يفكر فيها الفنان.

العمل الفنى توجيه لا أكثر.
أما السير والوصول فمسئولية
كل فرد وليس مسئولية الفنان.

الأعمال الفنية آلات يترقى بها الفرد فى تعرف القيم الرفيعة فى الحياة. الثقافة الفنية الناجحة تجعل من الفرد النابه فنانا فى كل لفتة من لفتات الحياة.

نلمح طرفا من أطراف السمو عندما نقرأ لكبير من علماء العصر أن عدد النجوم التى فى الكون قد يكون قريبا من مجموع حبيبات الرمل التى تغطى شواطئ

البحار فى أنحاء العالم.. وأن أغلب هذه النجوم يجوب الآفاق منفردا فى كون متسع الأرجاء إتساعا يجعل اقتراب نجم من نجم آخر حادثا نادرا من الصعب أن نتصور حدوثه.

كما نلمح طرفا آخر من أطراف السمو عندما نقرأ لنفس العالِم أنه لابد للأرض أن تقترب دائما من الشمس إن أريد للأرض أن تبقى صالحة للحياة. ولكن الأرض لا تقترب من الشمس، بل إن قوانين الحركة تعمل على أن تبعد الأرض عن الشمس وتدفعها نحو مناطق البرد والظلام، وأن للكون نهاية واحدة عندما تتوزع الطاقة توزيعا منتظما وتصير أجسام الكون كلها فى درجة واحدة من الحرارة.

وكذلك الحال عندما نقرأ للدكتور محمد عوض فى كتابه عن النيل أن القارة الأفريقية تخالف سائر القارات فى أنها خالية من السلاسل الجبلية الكبرى التى تختط القارة من أقصاها إلى أقصاها، وتكون بمثابة السلسلة الفقرية من الجسم. وإنّا لننظر إلى سلسلة جبال الألب والهملايا وهى الممتدة من أقصى غرب أوراسيا إلى أقصى شرقها.. ثم إلى سلاسل الجبال الصخرية والأنديز وكيف تمتد من الحد الشمالى للقارة الأمريكية من ألاسكا إلى مدى أمريكا الجنوبية فى جزيرة أرض النار.

ثم ننظر إلى أفريقيا ونحاول عبثا أن نرى لها منطقة جبلية بارزة منتشرة بين طرفى القارة. قد نرى فى أفريقيا جبالا كثيرة، وهضابا عالية تزيد على ثلاثة وأربعة آلاف مترا لكن أكثر هذه الجبال علّم فرد قائم بنفسه. وقد سمى جغرافيو ألمانيا هذا الطراز من الجبال بكلمة مركبة من لفظين بمعنى جزيرة وجبل.

وهذه الجبال أمثال الفون وكينيا وكليمنجارو هى منفردة وبارزة كالجزيرة المنعزلة وسط بحار من السهول المنخفضة. تتكون أكثر القارة الأفريقية من صخور أركية قد حوّلها تقادم العهد؛ إلى صخور متحولة.. ولقد توجد وسط هذه الطبقات مقذوفات من الصخور النارية القديمة بمقادير هائلة جدا بحيث

تكـــون فى بعـــض المواضع هى أهم ما تتركب منه القشرة الأرضية. وتعد تلك الصخور جميعا من أقدم الصخور. وهى عظيمة السمك جدا، وترجع إلى ما قبل العصر الكامبرى. ويرى كثير من الجيولوجيين أنها لم تغمرها مياه البحر بل بقيت جزءا من اليابس طوال العصور الجيولوجية اللهم إلا أطرافها التى ربما طغى عليها المحيط من زمن إلى زمن.

وهـــذه الطبقة الأركية القديمة شديدة الصلابة، واسعة الإنتشار وهى التى لشدتها وصـــلابتها تمكنت من مقاومة الحركات الأرضية العنيفة التى كونت جبال الألب والهملايا والأنديز فى العصر الكانيوزى.

أمـــا فى أفـــريقيا فلم تكن الصخور الأركية عادة من المرونة بحيث تقبل الإلتواء. وكان تأثير الحركات التكتونية أن أحدث بها إنصداعا هائلا ممتدا من الشمال إلى الجـــنوب وهـــو الـــذى يـــتكون منه الأخدود الأفريقى الكبير والطبقة الأركية المذكورة.

وكـــانت القارة الأفريقية فى العصر الأول الجيولوجى تتركب من تلك الصخور وكـــانت فى ذلك الوقت متصلة بجزيرة العرب والهند واستراليا وأمريكا وكانت كل هذه الأقطار الشاسعة تؤلف قارة واحدة سماها "سوس" قارة غندوانا. وهذه القـــارة الجـــنوبية العظمى بقيت على حالها طول العصر الأول وجزءا من العصر الثانى ثم أخذت تتفكك؛ فانفصلت أفريقيا بالتدريج عن كل من أمريكا وآسيا.. وتكـــون المحيـــط الهندى. وكان يغطى القسم الشمالى من أفريقيا بحر عظيم اسمه "تـــتس" وقـــد أخذ هذا البحر ينحسر ويتراجع إلى الشمال فى نهاية العصر.. ثم اســـتمر تـــراجعه حـــتى انكمش وصار بالتدريج كما نراه اليوم البحر الأبيض المتوسط.

وقـــد أخذت القارة الأفريقية فى أواخر العصر الثانى تتأثر بهذه العوامل التكتونية الـــتى بـــدأ مفعولهـــا يظهر من الحمم والصخور النارية من شقوق الأرض ومن فوهات البراكين. وكثير من هذه الجبال المتفردة ليست سوى براكين خامدة قد

نشـأت مـن تراكم تلك المقذوفات. ومن هذا الطراز جبل كليمنجارو وكينيا والفون وجبال موفمبيرو.

إذا كـان الـتعرف على القيم وإثباها والتأليف بينها وتركيبها فى النفس خارج نطـاق العـلم وداخل حدود الفن فإن الفن يتعرف على ألوان متعددة من القيم عـندما يصطحب العلم فى جولاته فى الأرض وطبقاها، والبحر ودخائل أعماقه، والحاضـر وماضيه، والنجوم وحجومها ومكونات أجرامها ومسالك حركاها، والمادة وعناصرها، والذرة وبنائها، والخلية وتشريحها، والعناصر وتحولها إلى أنواع الموجـودات، والحضـارة ونشـوئها، والأحلام ورموزها، واللاشعور ومخبآته، والحيوان والنبات وآلاف أنواعه وأدوار نموها وطرائق هذا النمو.

العلم يخرجنا – إن تأملناه التأمل الصحيح – من نطاق الحاضر البسيط ومن نطاق الفردية المحدودة ومقاييس القيم اليومية الصغيرة إلى رحاب الحياة.

يعوج الطريق المستقيم أمام الرجل الأعوج،
ويستقيم الطريق الأعوج للرجل المستقيم.

العـلم والفـن والدين قد يخدم كل منها الشيطان كما قد يخدم كل منها القيم العليا.

قراءتنا للعلم تحضير للفن.

ينقص السعى الفنى فى العصر الحاضر أمران:

الأول: التحضير للعمل الفنى.

والثانى: هو الهدف الذى يرمى إليه العمل الفنى.

الألوان والخطوط والأحجام وما إليها من وسائل التعبير الفنى لها جذور ولها ثمار: أمـا الجذور فهى تأمل الفنان لنواحى الحياة المختلفة من طبيعة وفن وعلم ودين. وأمـا الثمار فهى الشهادة للقيم الروحية وإثبات وجودها بإظهارها وتركيبها فى النفس.

إن إضطراد تعرفنا انتظام الحياة وتطور الموجودات، وكيفية نشوئها فى بائها فى آلاف الآلاف من السنين، وتداخلها وتشابك صفاتها، وتعدد ألوانها، وتنبه العلم إلى ترك الجانب الفردى فى سبيل الحقيقة الموضوعية، واحترام الخلق مهما كانت صورته، والتكوين والأسباب، كل هذا جدير أن يساعد على توطين النفس على الكثير من العواطف والأفكار القوية الرصينة التى من شأنها أن ترفع من الفن فى الحاضر والمستقبل مثالا رفيعا مضاهيا للمثال الرفيع الذى يقدمه العلم فى هذا العصر، والذى قدمه الفن فى العصور القديمة.

التجربة الدينية والشخصية المصرية

من المشهور أن المصرى متدين، لا يختلف إثنان فى هذا التصوير. ولكن.. ما معنى التدين؟
هـــنا يكـــون الخلاف، وهنا تكمن أهمية العلاقة بين التجربة الدينية والشخصية المصرية.

وقـــد ســـبق أن تعرضنا لشرح معنى الشخصية المصرية بعامة. وتبيَّنا أهمية تغيير مفهوم الشخصية من المفهوم الشائع إلى مفهوم ينطبق على الواقع.
واستقر بنا المقام على مفهوم أن الشخصية وعى خلاق للقيمة.

وتـــبين لنا أن موضوع القيمة ذاته من الموضوعات التائكة فى هذا العصر؛ لأنه أزمة العصر.
وأن مفهوم العلم بمعناه الحديث يستعد القيمة فى مجال البحث. وإن لم يستبعدها فلكى يسلبها حقها فى الوجود كمعطيات أساسية.

وأخطـــر ما يكون أثر هذا السلب فى مجال إدراك الإنسان لمعنى الإنسان. وتناولنا ذلك باختصار فى حديث "الفن وثيقة نفسية".

كما سبق أن تناولنا الموضوع فى الأربعينات تحت عنوان "الفن والعلم" "مجموعة الأحاديث الأربعة السابقة". وبينَّا فيه المعنى الأشمل للعلم حيث لا تستبعد القيمة، ووظيفة الفن والقيم.

وفى هذه الأحاديث نركز على التجربة الدينية باعتبارها:

أولا: عنصرا أساسيا فى الشخصية المصرية.

ثانيا: أنها المركز لعدد غير محدود من القيم.

وثالثا: أنها أساس لا غنى عنه إذا أردنا للإنسان الحياة الحرة والكريمة.

وطريقنا فى تناول هذه التجربة فى هذا المجال تبدأ بالإستدلال بالأقوال والأعمال من مجموعة الشخصيات الإنسانية الأربعة.

وطبيعة الموضوع لا تسمح بالإحاطة والحصر. ولهذا سيكون التناول بهدف الدعوة إلى تنظيم مثل هذا السعى (أى الدرس الدقيق) وتدعيمه والدعوة إليه بمنهاج بيِّن.

وتأتى هذه الدعوة مكملة للدعوة التى اتجهنا فيها إلى الدرس الموضوعى للإنسان المتقدم المعاصر كما يراه الصف الأول من الفكر المتقدم المعاصر، والذى قامت فيه الدكتورة "سمية أحمد فهمى" بتقديم كتاب "يونج" عن "النفس غير المكتشفة" والذى رأى فيه "يونج" أهمية التجربة الدينية للإنسان، كما بيّن الوضع المهتز للإنسان المتقدم المعاصر نفسيا.

ونبدأ هذه الأحاديث بالفصل الأخير للشاعر "إقبال" فى كتابه "تجديد التفكير الدينى فى الإسلام" بعنوان "هل الدين أمر ممكن" والنصوص بصفحاتها من الطبعة الثانية ١٩٦٨ ترجمة "عباس محمود" ومراجعة "عبد العزيز المراغى" و "مهدى علام" ونشر "لجنة التأليف والترجمة والنشر".

١ "على أن الدين – الذى هو فى أرفع مراتبه ليس إلا سعيا وراء حياة أعظم – هو فى جوهره تجربة.. وقد أدرك أن تكون التجربة أساسه وقاعدته قبل أن يتنبه العلم إلى اصطناع هذا الرأى بوقت طويل. فالدين سعى صادق صحيح يستهدف

توضيح الشعور الإنسانى.

وهـــو بوصفه هذا يمحص مستواه فى التجربة شأنه فى ذلك شأن المذهب الطبيعى الذى يمحص مستوى تجربته كذلك."[1]

٢. "فالمســـألة الوحيدة القائمة أمامنا هى هل المستوى العادى للتجربة هو وحده المستوى الذى للتجربة التى تقيدٍّ العلم"[2]

٣. "عـــلى أنـــه قد يقال.. إن نظرة الرجل الذى يعتمد على الرياضة البدنية فى إدراك الحقيقـــة لابـــد أن تبقى دائما فردية خاصة به، غير قابلة لنقلها إلى غيره، وهـــذا الاعـــتراف له بعض الوجاهة إذا قصد به أن الصوفى محكوم تماما بطرقه المأثورة ونزعاته وآماله"[3]

٤. "عـــلى أن منتهى قصد الحياة الدينية وهو كشف الذات بوصفها فردا أعمق من نفس الفرد العادية القابلة للوصف التصويرى"[4]

٥. "ويقول الرومى:

عشت تحت الثرى فى عوالم من تبر وحجر

ثم ابتسمت فى ثغور زهرات عديدة الألوان

ثم جبت مع الوحش والزمان المتنقل

فوق ظهر البسيطة، وعلى متن الهواء، وفى مناطق المحيط

وفى ميلاد جديد غطست فى الماء

وحلقت فى الهواء

---

[1] صفحة ٢١٠

[2] صفحة ٢١١

[3] صفحة ٢١١

[4] صفحة ٢١٢

وحبوت على بطنى

وعدوت على قدمى

وتشكّل سرّ وجودى كله فى صورة أظهرت كل دلك للعيان

فإذا أنا إنسان.

ثم أصبح هدفى أن أكون فى صورة ملاك فى ملكوت وراء السحاب

وراء السماء حيث لا يمكن لأحد أن يتدل أو يموت

ثم أعدو بعيدا وراء حدود الليل والنهار

والحياة والموت، مرئية كانت أو غير مرئية

حيث كل ما هو كائن

كان.. دائما.. واحدا.. وكلا"[1]

٦. ثم يقول إقبال: "وهكذا فإن الإنسان العصرى وقد أعشاه نشاطه العقلى، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة؛ أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس. فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه. وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره. وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا يقتل كل ما فيه من نضال سامى شيئا فشيئا.. ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة. وقد استغرق فى الواقع – أى فى مصدر الحس الظاهر للعيان – فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده؛ تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد. وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية هى ذلك الشلل"[2]

٧. هذه هى حال الغرب.

وليست حال الشرق خيرا منها؛ فأسلوب الصوفية – وهو الأسلوب الذى

---

[1] صفحة ٢١٤ – ٢١٥

[2] صفحة ٢١٥ – ٢١٦

تطورت ونمت به الحياة الدينية فى أسمى صورها فى الشرق والعرب – أصبح الآن فى حكم الفاشل.
ولعلــه أضرّ بالشرق الإسلامى أكثر مما أضر بأى مكان آخر. فقد كان أبعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسانية عند الرجل العادى، بحيث تعده للمشاركة فى موكــب الــتاريخ، فعــلّمه نوعا من الزهد الزائف.. وجعله يقنع بجهله ورقّه الروحى قناعة تامة

ومــن ثمّ، فلا عجب أن اتجه المسلم العصرى فى تركيا ومصر وإيران إلى البحث عــن مصادر جديدة لنشاط يُوجد أنواعا جديدة من الولاء مثل الوطنية والقومية التى وصفها "نيتشه" بأنها "مرض وحماقة" وأنها "أقوى خصوم الثقافة".

فعــندما يئس المسلم العصرى من إيجاد طريقة دينية خالصة تجدد قوى الروح التى تســتطيع وحدها أن تصلنا بالمنبع الدائم للحياة والقوة ببسط أفكارنا وعواطفنا، تعــلق أمله فى شغف بفتح مغاليق ينابيع قوى جديدة بتضييق تفكيره والحد من عواطفه. والإشتراكية الحديثة – ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة – لها نظرة أوسع أفقا لكنها وقد استمدت أساسها الفلسفى من المتطرفين من أصحاب مذهب "هيجل" قد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدى.

ولابد للقومية والاشتراكية الإلحادية فى الأوضاع الإنسانية الراهنة على الأقل من أن تــتأثر بالقوى السيكولوجية للكراهية والارتياب فى بيات الغير والغيظ.. تلك القوى التى تنزع إلى إضعاف روح الإنسان وإنضاب ينابيع قوته الروحانية الخفية:

فلا أسلوب التصوف فى العصور الوسطى
ولا القومية ولا الاشتراكية الإلحادية
بقادرة على أن تشفى علل الإسانية اليائسة.

ولا ريب فى أن اللحظة الحاضرة تمثل أزمة خطيرة فى تاريخ الثقافة العصرية"[1]

٨. "وقــد أصبح العالم اليوم مفتقرا إلى تجديد معنوى. والدين الذى هو فى أسمى مظاهــره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا أو شعيرة من الشعائر، هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصرى إعدادا خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث وأن يرد إليه تلك النزعة فى الإيمان التى تجعله قادرا على الفوز بشخصيته فى الحياة الدنيا والاحتفاظ بها فى دار البقاء.
إن السـمو إلى مسـتوى جديد فى فهم الإنسان لأصله ولمستقبله: من أين جاء.. وإلى أيـن المصير، هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشى.. وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية"[2]

٩. "والديـن.. من حيث هو سعى المرء سعيا مقصودا للوصول إلى الغاية النهائية للقيم فيمكنه بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته، هو حقيقة لا يمكن إنكارها.
وهـذا مـا تشـهد بـه جميـع المؤلفات الدينية فى العالم، بما فى ذلك ما دوّنه الأخصائيون عن تجاربهم الشخصية، ولو أنهم عبّروا عنها بعبارات قد تكون هى الصورة الفكرية لمرحلة من مراحل علم النفس التى عفى عليها الزمن.
وهـذه الـتجارب طـبيعية تماما مثلها مثل تجاربنا المألوفة، ودليل ذلك أن لهذه التجارب قيمة معرفية أو علمية لمن يمارسها.
بل هناك ما هو أهم من ذلك كثيرا وهو قدرتها على تركيز قوى الذات فتكسبها بذلك شخصية جديدة"[3]

ربما يكون من المناسب أن نكتفى بهذا القدر من أقوال إقبال تاركين الفرصة أمام

---

[1] صفحة ٢١٦ – ٢١٧

[2] صفحة ٢١٧

[3] صفحة ٢١٧

من يريد الإستزادة بالرجوع إلى الكتاب. إنما رميا من هذه القولات المختارة أن نشير إلى رأى أحد أقطاب الفكر الإسلامى المعاصر فى الموضوع.
ونـــثنى بـــأقوال "برتراند راسل" فى كتابه "نحو عالم أفضل" الباب السابع (الدين والمذاهب الدينية)
ترجمة ومراجعة دريني خشبة، وعبد الكريم أحمد (الألف كتاب رقم ٦٨) القاهرة ١٩٥٧. وهى محاضرات كتبت عام ١٩١٥ وألقيت عام ١٩١٦

١. "إن الدين.. كلمة لها معان كثيرة.. وتاريخ طويل.. وكثير من الرجال والنساء متدينون دون أن يكون فى طبيعتهم أى شيء يستحق أن يسمى دينا بالمعنى الذى أقصده من هذه الكلمة.
إنهـــم خالوا البال عن التاريخ والخبرة الإنسانية اللذين يجعلان من هذه الطقوس شـــيئا ذا قيمة.. ثم هم لا يتأثرون بأقوال الإنجيل التى تتكرر فى أسماعهم بذلاقة.. تـــلك الأقـــوال التى تكاد تدين جميع أعمال أولئك الذين يتوهمون أنهم حواريو المسيح.. إلى أن يقول:
.. إن الـــناس يصدرون فى أعمالهم عن أصول ثلاثة، ليس بينها وبين بعض كبير فـــرق.. إلا أنها تتميز من بعضها تميزا يكفى لأن يجعلنا نطلق عليها أسماء مختلفة.
والأصول التى أعنيها هى الغريزة.. والعقل.. والروح.
وحياة الروح من بين هذه الأصول الثلاثة هى التى تصنع الدين"[1]

٢. "وتشـــمل حياة الغريزة كل ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوانات الدنيا؛ أى كل ما له دخل فى المحافظة على الذات والتناسب والرغبات والنزعات التى ترجع فى الأصـــل إلى هـــذه الحيوانات. وهى تشمل الزهو والتملك وحب الأسرة بل والكثير مما يتكون منه حب الوطن
إنها تشمل جميع النزعات التى لها دخل بخاصة فى النجاح البيولوجى للفرد نفسه،

---

[1] صفحة ١٦١ – ١٦٢

أو لجماعـــة هـــذا الفرد؛ لأن حياة الغريزة بين الحيوانات التى تعيش فى جماعات تشمل الجماعة"[1]

٣. وحيـــاة العقـــل هى حياة الجرى وراء المعرفة من مجرد حب الاستطلاع عند الأطفال، إلى أعظم الجهود الفكرية. وحب الاستطلاع موجود عند الحيوانات،.. لكـــنه لا يـــتعدى – إلا عند الإنسان – حدود الفحص فى بعض الأشياء المعينة لمعرفة مدى صلاحيتها للأكل، أو لتبين موقفها إن كانت ضارة أو نافعة.

وحب الاستطلاع هو النزعة الأولية التى نشأ منها جهاز المعرفة العلمية كله. وقد تبين أن المعرفة فى ذاتها من الفائدة بحيث لم يعد حب الاستطلاع هو الباعث على تحصيلها، بل إن هناك بواعث لا عد لها تتضافر اليوم فى تغذية الحياة العقلية..

وحياة العقل تتألف من الفكر
الذى هو كله أو جانب منه شئ
غير شخصى؛ بمعنى أنه يهتم بالأشياء
فى ذاتها لا لعلاقتها بحياتنا الغريزية."[2]

٤. "وتـــتركز حياة الروح حول الشعور غير الشخصى، كما تتركز حياة العقل حول الفكر غير الشخصى.

وفى حـــدود هذا المعنى تكون الفنون جميعا تابعة لحياة الروح وإن كان الأصل فى عظمتها راجعا إلى كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الغريزة.

فالفن يبدأ من الغريزة ثم يرقى فى عالم الروح.
والدين يبدأ من الروح ثم يحاول السيطرة على حياة الغريزة.

ويمكننا أن نستشعر نفس الاهتمام فى أفراح الآخرين وأتراحهم كما نستشعره فى أفراحـــنا وأتراحنا؛ فنحب ونكره بصورة مستقلة عن كل علاقة بأنفسنا.. ونهتم

---

[1] صفحة ١٦٢

[2] صفحة ١٦٢ – ١٦٣

بمصير الإنسانية وتطور الكون دون تفكير فى أننا داخلون شخصيا فى ذلك كله"[1]

٥. "إن الاحـــترام والعـــبادة والشـــعور بما ندين به للبشرية وما نحسه من جبر وخضوع وفقا للقوانين التى يفسرها الدين التقليدى على أنها إلهام إلهى..
كل أولئك تابع لحياة الروح وأعمق من: أولئك جميعها، يستكن الإحساس بسر لا نعلم غير شطر منه؛

سر حكمة مبهمة ومجد خاف
لرؤيا متغيرة الصورة، تفقد فيها
الأشياء المشتركة أهميتها الثابتة
حتى لتصبح قناعا رقيقا نرى خلفه
الحقيقة القصوى لهذا العالم
فى صورة غير بيِّنة.

فمصـــدر الدين هو أمثال هذه المشاعر التى إذا قدر لها أن تتلاشى .. تتلاشى من الحياة معظم ما نعتبره خير ما فيها"[2]

٦. "إن ديـــن الفكر الذى أخذت تحترق فى لهبه اللافحة حثالة العالم اليوم هو ما يتردد فى خاطر كل رجل مفكر:
خير للعالم أن يهلك من أن أومن أنا أو أى إنسان آخر بأية كذبة من الأكاذيب.
وهذا دين جيد ينبغى أن يتم عمله التدميرى، لكنه ليس كل ما تمتد حاجة الإنسان إليه.
فالنمو الجديد ينبغى أن يتبع الهدم.
والنمو الجديد لا يمكن أن يجئ إلا عن طريق الروح."[3]

---

[1] صفحة ١٦٣

[2] صفحة ١٦٣

[3] صفحة ١٧٢

٧. "لقد قاست حياة الروح فى الأزمة الحديثة بالجمع بينها وبين الدين التقليدى، وبعداوتها الواضحة لحياة العقل، وبما أخذ يبدو من أنها تتركز فى إنكار الذات. إلا أنها فى جوهرها يقينية بقدر ما هى قادرة على إغناء الوجود الفردى، شأنها فى دلك شأن العقل الغريزى. إنها تجلب معها بهجة الرؤيا، وما فى هذا العالم من بهجة الغموض والعمق، وبهجة التأمل فى الحياة

وفوق كل شئ بهجة الحب العالمى:
إنها تحرر أولئك الذين يحصلون عليها
من سجن العاطفة الشخصية المثابرة
والاهتمامات الدنيوية. إنها تمنح الحرية
وسعة الأفق والجمال لأفكار الإنسان

ولجميع علاقاتنا بالآخرين. إنها تهيئ الحلول لشكوكنا، وتضع حدا لهذا الشعور الدى يخيل لنا أن كل ما فى هذه الدنيا هو متاع الغرور. إنها تقيد الإنسجام بين العقل والغريزة وترد الشارد إلى مكانه فى الحياة الإنسانية.

إن الذين ولجوا يوما فى عالم الفكر ليؤمنون بأن
السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا
إلى هذه الدنيا إلا عن طريق الروح"[١]

وحديثنا الثالث من أقوال "رادها كريشنا" فى كتابه "نظرة مثالية للحياة" – من مقال عن صميم الدين صفحة ٨٧/ ٨٨، وبعض ملاحظات حول سمات التجربة الدينية صفحة ٩١، ٩٢:

١. عُرِّف الدين كما لو كان شعورا وانفعالا وعاطفة..
غريزة ونظام عبادة وطقسا..
رؤية واعتقادا وإيمانا.

---

[١] صفحة ١٧٤

وهذه الرؤى كلها صواب فيما تؤكده، خاطئة فيما تنكره.

٢. لم يخطئ "شلير ماشير" وهو يقول إن هناك عنصرا شعوريا غالبا فى الوعى الدينى، ومع ذلك فالوعى الدينى متميز عن أى نوع من أنواع الشعور، كما أن هذا الشعور لا يمكن أن يشخص كإحساس بالمخلوقية المعولة.

٣. وإذا خلصنا بالخبرة الدينية على اعتبارها الوعى الأخلاقى كما يميل "كانت" فإننا نتخطى المميزات المشخصة لكل من النشاطين الخلقى والدينى.

٤. والدين ليس مجرد وعى بقيمة معينة: عنصر تصوفى، وإدراك للحقيقى واستساغة له لذاته، الأمر الذى يغيب من الوعى الخلقى.

٥. وليس الدين شكل من أشكال المعرفة كما يؤكد "هيجل" أحيانا. فبينما يتضمن الدين رؤى ميتا فيزيقية للكون فهو أمر لا يختلط مع الفلسفة.

٦. وعندما يعرف "هوايت هد" الدين بأنه ما يصنعه الفرد تلقاء شعوره بالوحدة الذاتية، فإنه يؤكد أن الدين ليس محرد ظاهرة إجتماعية: ليس مجرد ظاهرة للخلاص الاجتماعى.

٧-أ. الدين محاولة لإكتشاف الممكنات المثالية للحياة الإنسانية
٧-ب. الدين طلب للخلاص من الضغط المباشر للحالات الضئيلة والضليلة، ولا يصبح دينا حقيقيا إلا إذا توقف عن أن يكون مشاركة تقليدية فى الرؤية ويصبح خبرة شخصية.
٧-ج. الدين فعل وظيفى مستقل. للعقل البشرى.. شئ فريد له طابع تلقائى ذاتى.
٧-د. الدين أمر داخلى وشخصى يوحِّد رابطا كل القيم وينظم فى عضوية واحدة كل الخبرات.
٧-هـ. الدين إستجابة كل الإنسان لكل الحقيقة.

٧-و. نحن نقصد هدف الدين بكلية قدراتنا ونشاطاتنا وهذا الفعل الوظيفى لكل الإنسان هو ما يمكن أن نسميه حياة روحية متميزا عن مجرد النشاط الذهنى أو الخلقى أو الجمالى أو الجمع بينهما.

٧-ز. هـــو الحاسة الروحية.. الغريزة المتجهة إلى الحق.. لا يشفى غلتها أى شئ أقل من المطلق والخالد. وهى تجلو عدم قناعة لا شفاء منها بمحدودية المحدود وعبورية الزائل.

مثل هذه البصائر المتكاملة هى عدتنا فى الدين وهى تجلو علينا

موجودا يجعل نفسه معروفا لنا من خلال هذه البصائر

ويولد فينا ثورة وعدم اقتناع بكل شئ دون الخالد.

وخصائص التجربة الدينية صعبة المنال. قصارى الجهد إنطباعات:

ا. تجربة لا ينفصل فيها الشخص عن الموضوع.

ب. وعى متكامل غير منقسم.

ح. المشـــاعر تنصهر.. والأفكار تذوب.. والحدود تسقط.. والفوارق يتعالى عليها.

د. يختفى الماضى والحاضر فى وجود لا زمانى.

هـــ. تعى الحياة أعماقها.

و. يختفى التمييز بين العارف والمعروف.

ز. تُقتحم الذات الخاصة بالذات الكبرى وتحل محلها.

ح. تجربة لا تستعير من خارجها معناها وقوة حجتها.

ط. تختفى مؤثرات الحياة المعتادة ويحل محلها سلام، وقوة، وفرح.

أمـــا الحديـــث الرابع فهو من أقوال "لاوتزا" عن "التاو" من كتاب "تاوتتشنج"

"Chinese philosophy in classical times" من مكتبة Every mans library رقم ٩٧٣. والنص المتضمن من ترجمة "آرثر ويلى"

إذا أمكن أن يُحتوى القانون فى كلمات فليس هو القانون.
القانون غير محدود. إستعن به ولن تتعدى الحدود

قبل أن تُخلق السماء والأرض، كان شئ بلا صورة ولكنه كاملا، صامتا، خلاءا كفاءا لذاته، لا يتغير، يتحرك فى كل اتجاه ولا ينفد.
هذا بالأحرى أن يكون على التحقيق أم كل ما تحت السماء.
نحـــن لا نعـــرف كيف نصنِّفه. ولكى نكتب عنه نسميه التاو: الطريق وإذا كان لابد من أن نصنفه فنقول الأكبر أو الأسمى.
وهذا يعنى أنه نسيج وحده.. إنه خلاف العموم.. متميز عن الكتلة العامة.
وهكذا يكون التاو هو الأسمى، والسماء أسمى، والأرض أسمى، والملك أسمى. وفى مجاله أربعة.
والَملك الحق هو الذى يستوثق بالوحدة بينهم.
يشكل الإنسان نفسه وفق الأرض
والأرض وفق السماء
والسماء وفق التاو
والتاو وفق ما هو كائن عليه

إذا عرفت "التاو" فلك القدرة. وإذا أردت القدرة فكن غير متحيز. أن لا تتحيز قدرة الملك وقدرة الملك عطاء السماء أن تكون سماويا تكون قانونيا.
وإذا كنت وليا للقانون تستمر مع جسدك الفانى فى أمان من الخطر.

طـــبيعة الخير الأعلى كطبيعة الماء. للماء القدرة على نفع الجميع دون مجاهدتهم.
يضع الماء نفسه فى المكان الأسفل الذى لا يستسيغه الناس.
إلى هذا الحد هو شبيه بالقانون.

أيمكـــنك وأنـــت بصحبة روحك الجسدية القلقة أن تعانق وحدة العالم دون أن تفقد الزمام؟

أفى وسعك أن تحب الناس وتحكم العالم دون أن تشتهر بين الناس؟
أبمقدورك أن تملك الفهم الصحيح لكل المخلوقات ولا تتدخل أبدا؟

أعطهم الحياة.. أعطهم الغذاء.
لأنـــك إن أعطيـــت الحيـــاة و لم تدّع الملكية، وأن تصنع دون اعتمادك على ما صـــنعت.. أن تكون الرأس دون أن تكون المتسلط الآمر، هذه هى القوة الرهيبة؛ قوة التأثير وراء الوعى.

الإنغماس فى حب الألوان الكثيرة.. يعمى البصر.
الإنشغال بالأنغام الكثيرة.. يورث الصمم.
والحب الزائد للطعم الكثيرة.. يُفقد الشهية.
والجرى وراء الأهداف الكثيرة.. يأخذ بعقول الناس إلى الجنون.
وحب النادر من البضائع.. يقف سدا دون السلوك السوى.

لذلـــك كان الحكيم أكثر انشغالا بما يعنيه فى شأن نفسه مما هو ماثل أمام عينيه.. وهكذا يترك مالا يعنيه إلى ما يعنيه فى كيانه الذاتى.

تـــبقى الســـماء ســـرمدا، وتصمد الأرض. وسر هذه الديمومة أنهما لا يعيشان لذاتهما. وهكذا بقاء حياتهما المديد وهذا هو الذى يحدو بالحكيم أن يضع نفسه فى المحل الثانى فإذا به فى الصدر.. يضع نفسه جانبا من الأشياء والأحداث وتبقى روحه فيها.. ويقينا إنه بسبب خلوِّه من الشهوة النفسية قادر على تحقيق ما يحب ويريد.

لا تَنِ حتى غاية التجرد؛ الفراغ من الهوى.
تمسّـــك باستقرار السكينة.. فكل الأشياء مصنوعة على سُنَّة واحدة: فكما نشهد رأى العـــين كـــلها تعـــود.. قد تزخر وتزدهر بوفرة، ولكنها تعود لتذهب إلى

مســـتقرها الجذرى الذى جاءت منه. وهذا يعنى أن العودة سُنَّة القدر، ولن تجد لهذا تبديلا.

أن تعرف الباقى يكون لك النور..
كما أن جهلك له هو الذى يربى المصائب بغير علم.
أن تعرف الباقى تكون لك القدرة..
وإذا أردت القدرة فكن غير متحيز.

الحاكم الحقيقى لشعبه، هو الذى يدرك الناس مجرد أنه موجود.
ويليه ذلك الذى يحبه الناس ويمتدحونه
ثم من يخشون
ومن بعده من يحتقرون.

إذا لم يثق الحاكم فى الناس بما فيه الكفاية فهم على التحقيق لن يثقوا فيه.
الحاكم الحقيقى مكانه على البعد، وحديثه النذر اليسير:
فعـــندما يـــنجح الحـــاكم بالفعل وتسير الأمور سيرها الحسن، يقول الناس على اختلافهم أن الأمور تسير بطبيعتها.

القانون الأكبر ما أكبر فيضه.. هنا وهناك ولا يوحد مكان لا يذهب إليه الفيض.. وإليه يقصد الكل للحياة، وهو لا يرد أحدا منهم. ومع ذلك فعندما يتم صنيعه لا يكون الصيت رداؤه، فبينما هو يغذى كل الأشياء ولا يتعالى فهو ولا شك غنى عن الجميع .. حتى لقد يعدّ بين الأشياء الأخفض مقاما.
ولما كانت كل الأشياء له بلا إدعاء فهو الأكبر.
طريق السماء :

أن لا تجاهد الناس.. وتقدر على امتلاكهم
أن لا تعلن إرادتك.. وتحصل على الرد المطلوب
أن لا تستدعى.. وتأتى إليك الأشياء تلقائيا

وأن تعمـــل بكل التأنى على تخطيط وطيد فشباك السماء شاملة وواسعة ما بين الخيوط ولكنها لا تفقد شيئا.

الكلام الحق غير مزوق.. والكلام المزوق لا حق فيه.
خيار الناس لا يتخصصون فى الكلام.. والمتكلمون ليسوا من خيار الناس.
العلم النافع ليس علم كل شئ.. والعارفون بكل شئ ليس لديهم العلم النافع.
الحكـــيم لا يكـــتز فى السر، بل ينفق فى خدمة الغير فيكون لنفسه الغنم الأكبر.
وعندما يعطى يغنى أكثر.

هذا هو التاو قانون السماء
النفع الذى لا يلبسه الحشو.
طريق الحكيم أن لا يعارك الناس على ما يملك وما يملكون.

الفصل السادس

الإتقان فى الفن

١

أتكـــلم عن الإتقان فى الفن. ليس الإتقان فى الفن إطلاقا فلا أحد يمكنه التحدث عـــن الفـــن على إطلاقه؛ لأن صور الإتقان فى الفن متعددة ولنذكر مثلا ثلاث أعمـــال: الأهـــرام.. والبارتينون.. وكاتدرائية تشارتر. هذه ثلاث أمثلة رائعة من الإتقان على المستوى العالمى ولكن الإتقان فى كل منها يعود إلى إطار من الفكر والمـــثاليات يختلف عن الإطار الثانى: بمعنى أن المثالية الأغريقية تختلف عن المثالية المسيحية وكلتاهما تختلف عن المثالية المصرية الفرعونية.

فالإتقان له صور متعددة

ماذا نعنى بالمثالية؟

نـــأخذ من المثالية مُثُلها أى ما تتغياه هذه المثالية من مثاليات فى ذروتها: فالإنسان الذى لا مثالية له لا أخلاق له.. لا ميزان له. إذ كيف يوزن وعلى أى مثالية؟

وغياب المثاليات عن العصر هى التى تضل الناس.

ولكى تتم إنسانية الإنسان

لابد له من مثاليات معينة

كل فن من الفنون يمت إلى نوع معين من المثاليات.

إلى هذه المثاليات ينتسب العمل الفنى والنقد الفنى أيضا.

ففـــى الفـــن الإغريقى نجد فى البارتينون مثلا، أن الإتجاه السائد – بعد الأعمدة الرأسية – هو الإتجاه الأفقى

بينما فى القوطى إتجاه رأسى صاعد.

ويتبع هذا الإطار المعمارى كل الفنون التفصيلية داخل هذا الإطار

الفـــرق بين الحضارة الإغريقية فى القرن الخامس قبل الميلاد الذى انتج البارتينون،

والإتجاه القوطى فى العصور الوسيطة الذى انتج شارتر

وأقول شارتر باعتبارها قمة فى الفن القوطى

هو الفرق بين الذهن الصافى الفلسفى الإغريقى

والوجدان المتشبب الملىء بالشوق والحنين والتطلع إلى الله.

فالإتقان الذى يتطلبه عمل فى ضوء مثالية معينة، يختلف عن الإتقان الذى يتطلبه العمل فى مثالية أخرى.

والإتقان فى الفن مستويات ثلاثة:

١. المســـتوى الـــذى ذكرناه؛ مستوى المثالية. وهو منسى اليوم ليس فقط عند الفـــنان، بل عند الجهات التى تُعلّم الفنان.. وعند النقد الذى يقيمّه: فالمفروض فى العمـــل الفنى سواء عمله فنان، أو علّمه المدرس، أو نقده الناقد أن يوضح الإطار المثالى للقيم القمم فى مثالية هذا العمل.

فنحن لا يمكننا أن ننقد الفن المعاصر

على أساس المثالية القوطية أو الإغريقية

٢. أن تنتقد أو تقيّم أو نتكلم عن الإتقان على مستوى العمل نفسه وموضوعه، وهل هو تصوير أو عمارة أو خزف.. الخ بهذا الشكل أعنى.

٣. العمل الفردى الكائن أمامى والذى أتكلم عن الإتقان تلقاءه.

... ...

ســـأتكلم عن الإتقان كما تمثّل لى وما زال يتمثّل، بعد البحث الذى طال لأكثر مـــن نصف قرن. لا أتكلم كلاما مطلقا، ولكن أتكلم من زاوية معينة ألتزم بها دائما: هى زاوية تاريخ هذا البلد وحصاد أو حصيلة هذا التاريخ.

ونعتبر تاريخنا – بل تاريخ البشرية كله –
عبارة عن تجارب: فأى عمل تجريب فى الحياة
والمثاليات هى نتيجة هذه التجارب.
والكوارث التى نعرفها أيضا.
والتجربة مستمرة، والإنسان الواعى
يستفيد من التجربة ويشارك فيها.

ماذا نتغيّى؟ نتغيّى التوحد مع منطق التشكيل فى الطبيعة.
كلنا نعرف – كمتكلمين العربية – أن كتاب العربية الأكبر هو ا لقرآن والبلاغة العربية مثلها الأعلى هى البلاغة القرآنية.
وبمناســبة الحديث عن البلاغة أذكر اننا حين بحثنا عن ترجمة كلمة "أتقن" كما جــاءت فى الــترجمة الانجليزية للقرآن وجدناها Orderth بمعنى "نظم" وأظن أن هــناك بونا شاسعا بين "اتقن كل شئ" و "نظم كل شئ". لا توجد دسامة معنى الإتقان فهو غير النظام أو التنظيم.

أقول نحن نعرف أن البلاغة القرآنية هى مرجع البلاغة العربية. ولكن هناك بلاغة إلهية أخرى: هى كتاب الله المرئى وهى مرجع البلاغة التشكيلية ولابد أن نتعرف هذا الكتاب: كيفية التعبير التشكيلى.

الصــياغة الــلغوية فى القرآن المقروء. والصياغة البنائية فى الكون المرئى المحسوس والملموس والذى نتعامل معه، ترجع بلاغتهما فى أنهما صنع الله

وكلــنا نطالب كليات التربية الفنية فى إعدادها للفنان بمحاولة الدعوة إلى التوحد مع الأسلوب البنائى للتشكيل الطبيعى. كيف؟
وكيف هذه تحتاج صبرا طويلا فى تفهمها هو نفس الصبر المطلوب لتفهم البلاغة القرآنية.
لتفهم البلاغة القرآنية نعود "للإتقان فى علوم الإتقان" للسيوطى. ولتفهم البلاغة

التشـــكيلية نذهـــب للفـــنون البشرية التى احتفلت بخلق الله وعلى رأسها الفن الفـــرعونى والفن الصينى. وأضيف من زاويتنا الفن الإسلامى؛ لأن وجهة نظرنا عـــن الفـــنون الإسلامية إنها لم تكن تتجافى مع الخلق الطبيعى. فلو تجافت لكان تناقضا غريبا أن يطلب القرآن من الناس أن تتأمل خلق الطبيعة باستمرار ويتجافى الفـــن الإسلامى مع الطبيعة. والحقيقة أن الفنون الإسلامية تستمرئ تأمل الخلق الطبيعى بحيث أن خلقها الفنى يبدو كما لو كان خلقا طبيعيا. وتذكرون غلافات الكـــتب الإسلامية والأوانى النحاسية فإن شيئا منها لا يضاهى المرئيات ولكنها بهذا القدر من الإتقان بحيث تتجلى فى هذه الأعمال بلاغة الخلق الطبيعى.. بلاغة التشـــكيل الطـــبيعى. هنا كان الفن الإسلامى أعمقا فى تواصله مع الطبيعة من الفنون التى تبدو ظاهريا أنها انشغلت بالطبيعة.

تتضح القضية أكثر إذا وضحناها كالآتى:

أ

إن الإنسان الفنان.. الصانع.. يتعلم من صنع الله: فنحن ونحن أطفال ننجذب إلى صـــنع الله على شاطئ البحر أو فى القرية أو فى الطبيعة.. ننجذب إلى الأصداف.. إلى الأزهـــار.. الـــبيض.. الـــبذور.. بعض الطيور.. بعض الأشياء الواضح جمالها العجيب.

الله سبحانه لا يصنع شيئا بإتقان وآخر بلا إتقان. إن صنعته على مستوى واحد وكلها رائعة وبليغة إلا أن بعضها يتطلب بحثا عميقا ليتجلى الإتقان فيه.. فقد لا يبين على الظاهر وهنا لابد من المختص: المختص فى الرؤية وفى التشكيل.

يتأمل ويتكشف فيها الروعة والإتقان

فمثاليتنا الأولى لكى يتحقق الإتقان

أن يحاول الفنان أن يتوحد مع منطق الخلق الطبيعى.

وهـــذا لا يتـــنافى مـــع بعض النظريات المعاصرة والقديمة أيضا فى تفسير الجمال

الشكلى لأنها ترجعه إلى قوانين رياضية. وهى تؤكد أن الخلق الطبيعى مبنى على نفس القوانين.

نقــول إن مصدر الخلق واحد.. جوهره واحد: فبقدر ما ينجح الصانع فى تنمية ذاتــه فإن الخلاقية الأساسية تبدع من خلاله أعمالا تستحق أن تحوز شرف أن تكون صناعة إلهية.

ب

الــتوحد مع منطق التاريخ. والتاريخ هنا على مستويين: مستوى الفرد ومستوى العصر.

فــلكى يــتحقق الإتقــان.. ولكى لا يعتبر العمل متخلفا أو خارجا عن السياق الصــحيح السليم السوى، لابد أن يكون لدى الفنان استيعاب لمنطق التاريخ فى الخلق الفنى. بمعنى:

لمــاذا الحديــث حديــث؟ لماذا النهضة نهضة؟ لماذا القوطى قوطى؟ والبيزنطى بيزنطى؟ وهكذا.

اليــوم هــذا الأمر صعب ولكنه ضرورى للفنان إذا كان لا يكتفى بمجرد تتبع الموضات السائدة ليواكب التيار السائر.

إنمــا لابــد أن يقــف ويفهم لماذا تُخرج الدنيا المتقدمة علميا هذه المآسى الفنية المعاصرة!

ما موقفى منها؟ ومن أنا؟

وإذا كــنت مصريا فما هى وجهة النظر التى جئت منها؟ وما ردها؟ وما موقفها تجاه ما يحدث؟ وهل أسير فى هذا االتيار.

أنا مستعد أن أسير فى العلم مع هذا التيار

ولكن هل أسير فى الفن أيضا مع هذا التيار؟ وما المبرر؟ وما موقفى؟

هنا لابد للإتقان فى العمل الفنى

من توحد مع منطق التاريخ كما

كان لابد من التوحد مع منطق الخلق الطبيعى

ج

التوحد مع المبدأ الروحى للوجود.

لا تنسوا أنى أتكلم من الزاوية المصرية. والزاوية المصرية لا يمكن أن تنجح وتعمل وهى تنآى عن المبدأ الروحى.

مصر بلد إيمان. والإيمان بالمعنى الثقافى
الذى نقصده ليس موقف قضايا لسانية
بل هو موقف وجدانى كيانى إنسانى فهذا الكيان
متفق مع جوهر الخلق.. مع حقيقة الوجود.

أو هـــو يحاول..وبقدر ما ينجح وهو يحاول يكون قدر إيمانه. فى كتاب الدكتورة سمية أحمد فهمى "خذى بيد طفلك إلى الله" تقول بالعلم يمكنك أن تصلى به إلى الله، لأن العـــلم يشرح صنع الله.. وبالفن لأن القيم الجمالية المختلفة هى إشعاعة مـــن محـــور الكون الروحى. فإذن مهّدى له الطريق فسيصل إلى الله. هى تتكلم كأســـتاذة علم نفس ومشغولة فى نفس الوقت بتنشئة الإنسان. وما تقوله هو ما أقوله وهو التوحد مع محور الحياة.. المحور الروحى الكائن خلف وفوق العلم كله وقيم الفن كلها وفوق كل القيم الكبرى فى الأخلاق.. فى النهاية هناك الأنسجام مع هذا المبدأ الروحى.. والتوجه إليه وعدم الهروب منه هدف من أهداف المثالية التى تتوخى الإتقان كما نفهمه كمجموعة من المصريين نعيش فى هذا المكان.

ماذا يعنى أن تعيش فى هذا المكان؟

إنهـــا مسئولية. فعليك عبء التاريخ بكل حسناته وكل سلبياته وعليك المساعدة بكل صعوبتها.

والإتقان الذى نتغياه هو
أن لا أعمل كفنان ذاتيا شحصيا
بل موضوعيا.

وأقــول إن الفـــنون الإســـلامية والفرعونية فنون موضوعية بينما يغلب الطابع الشخصى على الفنون الحديثة.

ولشـــرح هـــذا نتصـــور أمامنا شجرة نراها جميعا. فإذا كان لدى أحدنا نروع رومانســـى ســـيرى الشجرة بشكل خيالى فيه شئ من الجنوح والطموح والحلم وهى من النزوع الرومانسى وهذا غير موضوعى.

المصـــرى القـــديم حـــين يرى البقرة أو الصقر أو الإنسان لا يراها رومانسيا بل موضوعيا. كيف؟

نحـــن نعيش عصرا رومانسيا فى الفن رغم أنه يبدو بعيدا عن الرومانسية أما الفن المصرى فهو يلتزم بما قلته سابقا؛ الخلق الطبيعى والتاريخ.

ماذا كان يفعل المصرى القديم؟ وما هو عمله الأساسى تاريخيا؟

كـــان يخـــرج بالبشرية من البدائية والبربرية إلى الحضارة. هناك بدائية فى بداية الإجـــتهادات الفنية المصرية الفرعونية.. وقد تجد بربرية أيضا. وحين وصل عصر الأهرام لا تجد أثرا لبربرية ولا لبدائية.. تجد السمة الأساسية هى الحضارة.

الحضارة اكتشاف مهم جدا للإنسان
الحضارة هى الوجود الإنسانى الذى يليق بالإنسان
وجوهره احترام الإنسان
والطريق إليه احترام الكون

لـــنا أحاديث طويلة حول الحضارة ولكنى أشرح معنى الموضوعية فى الفن بأعمال لا تجـــد توقيعات على أعمال الفنانين المصريين القدماء فلم يكن الهدف التعريف بأعمـــال فـــلان إنمـــا كان - يتوخى من خلال عمله - الارتفاع فى سلم القيم والوعى بها. وهدفه الأساسى هو المقدس والطريق إليه. فحين كان يتأمل أى شئ ســـواء كـــان حيوانـــا أو طائـــرا أو إنسانا كان يتأمله ككلمة من كلمات الله ويتخلص من كل ما هو ذاتى خاص به. ويتوجه بقلب مروَّض فى تأمل التجليات التى تترى من خلال هذا الموضوع.

ونحن أصدقاء الفن والحياة حين كنا نتأمل أجسام الطبيعة المختلفة لم يكن يحاول أى مـــنا أن يعـــبر عـــن مشاعره نحو ما يتأمله إنما كان يرى ما يراه من الطبيعة كمجلى من مجالى الخالق سبحانه وتعالى.

هذا هو الفن الموضوعى:

لا يبحث عن الشخص

إنما على ما ينبغى أن يتجه إليه الشخص.

وكل شخص مثله الأعلى هو المقدس

الفنون الكبيرة كالصينى والهندى

والقوطى والبيزنطى والمصرى والإسلامى

هدفها موضوعى. أما فى العصر الحديث

فقد انحسر الفن جانبا عن الحياة

ولم يعد للفن عمل. فانكفأ الفنان على نفسه

ما بين بعض مسائل التقنية فى الصنعة الفنية

وبين أهوائه الذاتية أو أهواء طالب العمل

وكل هذا ذاتى.

مـــن أقام جامع السلطان حسن أقام صرحا رائعا لجامع ومدرسة يعبر عن الضمير المصـــرى فى فـــترة من الفترات كان فيها تأزم سياسى وحربى معروف والحُكم معروف فى هذه الفترة. إلا أن الضمير المصرى كان فى عزِّه يعمل عملا يعبر عن رؤيـــة القلب تجاه واقع القدسية التى يستثيرها الخلق الطبيعى فى نفسه ويستجيب لهـــا عـــن طريق العمل الرائع جامع السلطان حسن. هذا عمل موضوعى وليس ذاتيا.

كانت النقطة الأولى فى حديثنا هى التواصل مع منطق الخلق الطبيعى ومع التاريخ ومع المبدأ الروحى

والنقطة الثانية الاتجاه نحو الموضوعية بديلا عن الذاتية السائدة.

ونتحدث عن النقطة الثالثة وهى أن يكون العمل للناس كل الناس ولمساعدهم على تحقيق الغاية من وجودهم.

لماذا يحتفل العالم حتى اليوم بالفنون الإسلامية والفرعونية؟

لأنها فنون تخاطب الضمير.

العالم يهتم ويقيم هذه الفنون لأن بها إيحاءا وإيماءا إلى الغاية من الوجود وهو الله.

وفى الفـــن الفـــرعونى قلنا إن الفنان أنقذ الكاهن لأن الكاهن حبس نفسه داخل النصـــوص.. أما الفنان فعن طريق تأمله الصحيح للخلق الطبيعى وصل إلى المبدأ الروحى ولكتاب الله المرئى من قبل أن تتزل الكتب السماوية.

كان يرى قمة القيمة بقلبه

و لم يقدر لسانه على التعبير.

الفـــنون الكبيرة تبدأ بعد أن ينتهى الكلام. فكلام التشكيل لا تقدر اللغة أن تعبر عـــنه كـــلغة الموسيقى. ليس من السهل أن تعبر عن الموسيقى بلغة التشكيل وإن أمكن أن تعبر بشئ موازى. إلا أن للموسيقى معانيها وللتشكيل معانيه وكلاهما يستعصى على الشرح بلغة الكلام وكلاهما فى قممهما يوصلان للقمة.

ا. فالفن الموضوعى

ب. والفن الذى يتغيى محاذاة أسلوب الخلق الطبيعى والذى يتمشى مع مرحلة من مراحل تاريخ الإنسان والذى يشير إلى المبدأ الروحى

ج. يحمـــل لكل إنسان فى أى مكان – إذا انشرح صدره له – زادا يساعده على الطريق لتحقيق الغاية من وجوده.

٢

للإتقـــان صور متعددة.. والإتقان – كما أراه – تمثل ويتمثل بعد بحث طال سنين فى نقاط ثلاث:

١. التوحد مع منطق الخلق الطبيعى، ومع منطق التاريخ ومع جوهر الوجود
٢. أن لا أعمل فرديا ذاتيا بل جماعيا موضوعيا.
٣. أن يكون الفن للناس أجمعين نموذج حياة وطريق إلى الغاية من الحياة.

قلنا عن التوحد مع منطق الخلق الطبيعى أن الكون أكبر عملية تشكيلية. وأن هذا التشكيل الطبيعى معيار.. والتعرف عليه مجاهدة.. والوحدة معه هداية وتوفيق. ومـــنطق التشـــكيل واحد ومتعدد.. مؤتلف ومختلف.. بسيط وكثيف كالبللورة والـــثمرة.. الشـــجر والحجـــر.. فى البر والبحر النظام عام وشامل فى كل الخلق الطبيعى.. والنظام أشكال لا حصر لها.. النظام رياضة وموسيقى.

الفن تأمل وعمل..
الفن حرية وانضباط..
الفن طبيعة الوجود..
والفن الإنسانى هو قدر الفنان الإنسان.

حديثنا يتناول عشرة نقاط.

١. تتطلب الغاية الأولى – التوحد مع منطق الخلق الطبيعى – الخروج من الذات وتنمية القدرة على التعاطف مع البنيان الطبيعى، ليس فقط بمجرد الملاحظة الحسية

لحــركة السطح أو اتجاه الكتلة ولكن الخروج من الذات والتواجد داخل الجسم الطــبيعى والإنتشار فيه والحس بكنه معناه والتشكل بنوعية حيوية وجوده، ليس الحيويــة البادية على السطح فحسب بل الحيوية السارية فيه رغم خفائها لظهور المواد فيه. وإن من شئ فى الوجود إلا وفيه حياة خافية.

هــذه النقطة تنحصر فى نقطة الحديث الأول الأولى وهى التوحد مع منطق الخلق الطبيعى: نقول

إن الله يخاطب الناس عن طريق الكون.. الخلق الطبيعى.

هــذا الكون مكتوب بلغة، يقرأ جانبا منها العالِم ويرى فى مظاهره التى يتعرف عليها، معانى.

والفنان حين يتأمل الكون من ناحية تشكيله يجد أن هذا التشكيل أيضا يستدعى، أو يعبر، أو يرمز إلى معانى.

معانى الأشكال هذه هى لغة الخلق الطبيعى
واختصاص الفنان التشكيلى هو فقه لغة التشكيل الكونى
وغايته من وجهة نظرنا هو التوحد مع منطق،
مع نهج، مع أجرومية، مع قواعد هذا الخلق الطبيعى.

مــثلا.. أريد أن أتكلم اللغة العربية بنهج سليم.. أرجع إلى القرآن باعتباره كتاب الــلغة العربية الأكبر ولا مثل أعلى منه لدينا. فحين أطلع على القرآن باستمرار تــتكون عندى الحاسة اللغوية العربية. وإذا اطلعت على الحديث وعلى أساطين الــلغة فى النواحى المختلفة وتعرفت على أساليبهم فى التعبير فأنا أتفقه أكثر بمعنى اللغة العربية.. بأسلوب اللغة العربية فى الحديث.

ونقــول إن للطــبيعة لغــة كاللغة العربية أو الانجليزية أو التركية أو أى لغة من اللغات إلا أنها نوع من اللغة العالمية الكونية.

ووظيفــة الفــنان التشكيلى هو تأمل هذه اللغة وفقهها. وبقدر ما يكون تعمقه

وتوفيقــه فى التوحد مع منطق هذا التشكيل الطبيعى بقدر ما يكون الطريق إلى الإتقــان فى إنــتاجه ممهدا إليه، لأن الخلق الطبيعى معيار.. مقياس.. فحين يحلل المحلــلون أهميــة وقيمة الشكل الخالص النقى يجدونه يمت إلى الشكل الطبيعى فى الخــلق. ليس الشكل الظاهر المنظور للعين التى ترى السطح لأن الطبيعة لا يكفى الــتعرف عــليها الرسم المنظور، أو قراءة وحفظ بعض أشياء خاصة بالتشريح وبالعضلات إنما التعرف على منطق التشكيل الطبيعى

ومع جوهر الطبيعة

ومع مكنون الطبيعة

يتطلب الإنسان كله مع الطبيعة كلها ككل.

بمعنى الخروج من ذاته: فنحن اليوم لا نناقش مشاكلنا الذاتية كل واحد على حده بل إننا نناقش موضوعا خارج مشاكلنا الذاتية فهنا محاولة للخروج من الذات.

البحث العلمى أيضا خروج من الذات.

والإنســان النقيض من المطلوب تماما والمحبوس داخل نفسه يعتبره العلماء إنسانا غــير ســليم صحيا.. لا أقصد الإنسان المنطوى على نفسه فقد يكون الإنسان منطويا.. ولكنه إنسان عادى. أما المحبوس داخل دائرة نفسه المقفولة بحيث يكون التواصل مع العالم الخارجى غير ميسور فشئ أكثر من الإنطواء وهو حالة مرضية تفتقد فيها القدرة على الخروج من الأسر الذاتى الضيق.

الإنسان العادى الغير مريض نفسيا ولكنه محبوس داخل ذاته، واهتماماتها، حتى لو اهــتم بالاهــتمامات الإجتماعية العادية التى يهتم بها الإنسان السوى كالاهتمام بالأحداث الجارية.. أو اهتمامات مهنته أو طبقته أو جمعية خاصة هو ينتمى إليها .. لو اهتم بهذه الإهتمامات لتوسعت ذاته قليلا إلا أنه ما زال محبوسا داخلها.

لكــن عــالم كنيوتن مثلا حينما يفكر فى حركة الأجرام السماوية ويبحث عن قوانيــنها.. هــذا خرج عن ذاته وإن كان خرج فى الناحية العلمية. وهل يوجد وجود خارج النطاق العلمى فى الكون؟

نعـــم نقـــول كفنانين أن هذا الوجود الخارجى ممكن التقرب إليه علميا.. وفنيا.. وفلسفيا.. وتصوفيا..
كـــلها مداخـــل للتواصل معه وهى مداخل غير خاضعة للأسر الذاتى.. للحدود الذاتيـــة. لكن كل ما كان للإنسان قدرة على الخروج من ذاته والاهتمام بما هو خـــارج الذات فى الكون كله ويتأمله ويعيه ويحاول أن يتواصل معه كلما كان مثقفا سواء كان مثقفا علميا أو فنيا أو دينيا.

أؤكد مرة ثانية، ليس فقط مجرد الملاحظة الحسية على السطح أو اتجاه الكتلة لأن هناك من يفهم إن الفن ممكن أن يكون موضوعى بمعنى النظر إلى الطبيعة الخارجية موضوعيا ورسمها بأمانة.
كـــنت أراجـــع مقالـــة للفنان الفرنسى "راووه" يقول فيها "الفنان الذاتى أعور والفـــنان الموضوعى أعمى". ومع ذلك فأنا أدافع وأطالب بالفن الموضوعى، لأن الموضـــوعى الـــذى أقصده غير الموضوعى الذى يتكلم عنه "راووه". هو يعنى ما كـــانوا يتعـــلمونه فى مدارس الفنون؛ من أن تجلس أمام الطبيعة وترسمها مراعيا المـــنظور ودرجـــات اللون. أما الموضوعى الذى أعنيه فهو الرؤية: رؤية الفنون الكـــبيرة التى لا تقتصر فيها رؤية الطبيعة على حواس الإنسان بل بحواسه وعقله وقلبه؛ أى بصيرته.. ثم أن تكون حاسة مثقفة: أى رهيفة الإدراك.. وعقل مثقف نامى ورهيف الإدراك أيضا.. وقلب مثقف رهيف الإدراك.
الطـــبيعة التى يراها الإنسان بعقله فقط طبيعة جزئية. أما النظرة التى نطالب بها – ومرجعى المثالى لها هو الفن الفرعونى والفن الصينى – فهى التى تجمع بين الحاسة والعقل والقلب، فهذه فنون كانت تتغى الرؤية الكونية.. موضوعيا. وليس معنى ذلـــك أنهـــا تلغى القلب، فالقلب هو الأساس.. هو العين الرئيسية وليس القلب المحـــبوس فى اهتماماته الذاتية الصغيرة.. هى البصيرة، والبصيرة غير البصر. ويقول القرآن: "إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور".

أعود وأكرر أن الخروج من الذات والتواجد داخل الجسم الطبيعى والإنتشار فيه:

بمعنى أن أمامى شجرة مثلا.. تصوَّر أنى أدخل داخل الشجرة وانتشر فى جذوعها وفروعها وأوراقها وثمارها وكينونتها، وأحس بكنه معناها أى تضرب فى الأرض فى الطين.. وتلمس النور من أعلاها وتنتشر فى الفضاء. هذا هو الحس بكنه معناها والتشكّل بنوعية حيوية وجودها.

وجود الشجرة يختلف عن وجود الحيوان.. ويختلف عن وجودى. والمفروض أنى - كفنان - أتعاطف مع أصناف الوجود المتغيرة: ليس مع الحيوية البادية على السطح فحسب، بل الحيوية السارية فيه رغم خفائها بظهور الموات فيها.. لأن الإنسان الفنان يدرك بعد فترة أن الميت ليس بميت، فهناك حياة فى الموت.
كانوا يقولون "طبيعة ميتة". ولا توجد طبيعة ميتة. فهناك حيوية داخل الطبيعة الميتة. وإن من شئ فى الوجود إلا وفيه حياة خافية.

٢. يقظة ورياضة :
وهذا الخروج من الذات يتطلب يقظة ورياضة.
يقظة إلى وجود آخر أكبر من الذات.. أرفع.. وأروع.
ورياضة نفسية مفروضة من هذا الوعى للحد من عبثية الذات والتروض بحساب ودقة الخلق.
عبثية الذات هنا تعنى النفس الخاضعة للهوى. والذات هى مجموعة الأهواء التى يخدمها الشخص.. أهواء ونزوات ومن طبيعتها أن تكون عبثية. ولكن حين يتيقظ الإنسان ويصحو يجد- بعد أن كان لا يرى إلا نفسه - كونا كبيرا موجودا قبل أن يوجد هو. وهذا الكون موجود الآن وسيوجد بعد انتهائه. سيشعر - بعد صحوته - أن وجوده الذاتى بالصورة الهوائية العبثية شئ والوجود الآخر شئ آخر وجود له نظام وله حساب ومسيّر بقانون يختلف عنه من ناحية الهوائية.

٣. القانون والحرية :
وليس فى هذا القانون من صفات القانون الوضعى - كقانون الجنايات والمحاكم

إلا القليل إذ هو الذى يسير الكون الخارجى والداخلى حتى فى أعماق نفسى وليس على سطحها، إذ هو قانون حافل بحشد غامر وفياض.. وزاخر من العواطف والمشاعر المتناهية فى الرقة والسمو والصفاء إلى جانب الحسم والعزم والقطع الجازم والرهبة والروعة البالغة ما بعد الحد الموصوف.
تشرح الفنون الكبيرة التى توفرت على تأمل الوجود الكونى مشاعر عجيبة كما تشرح الدقة الرياضية بمقادير عناصر التشكيل لكى تتحقق من المواءمة بين الشكل والمضمون.
فإذا تأملنا الهرم أو جامع السلطان حسن فإننا نشعر بوجود أكبر من وجودنا الذاتى الشخصى: لأن الفراعنة أو المسلمين الذين أقاموا هذه المبانى كانوا يتغيوا تأمل جانب من هذا الوجود.. هذه الحضرة موضوعيا وهو وجود أكبر وأرفع من الذات بل ويتجلى فيه حشد غامر وفياض من العواطف والمشاعر المتناهية فى الرقة والسمو بل تبلغ حد ما وراء ما يقدر عليه الوصف أو تسعه عبارة اللفظ.
لماذا نبغى تثقيف الإنسان؟
لماذا نريد له أن يتربى تربية فنية؟
ولماذا نهتم أصلا بوجود تربية فنية؟
ولماذا أقول إن التربية الفنية فى وضعها الراهن لا تكفى؟

لأن المفروض أن التربية الفنية توقظ وعى الإنسان بذلك الوجود الشامل الكبير الذى تعتبر الذات الفردية بجانبه ضئيلة وصغيرة.
لذلك أطالب بالحس بالوجود الذى أسميه الوجود الموضوعى وأقول أننا لا نلغى مشاعرنا ولكن نلغى أسرنا بأهوائنا الذاتية الصغيرة ومشاعرنا الذاتية المحدودة.
إن التعاطف مع الخلق الطبيعى فى صورة البنيان التشكيلى إنفتاح على عالم من المشاعر لا يُحد ولكنه مسيّر وميسّر.. مقيد وحر فى غير تناقض لأنه يعلو فى أفق الشاعرية الموضوعية إلى مشارف رحاب الحقيقة الكلية.

لنأخذ الناحية العلمية دليلا معنا حين نتأمل الكون علميا: النبات والحيوان فى

الطـــبيعة، الصوت والضوء، والظواهر المختلفة، نجد أنها لا تسير بعبثيه أو بهوائية إنمـــا تســـير بحســـاب وقانون.. وفيها بهجة فى نفس الوقت يعنى الصوت ملىء بالرهـــبة وبالـــرقة: رقة النسيم وروعة الإعصار ودقة تكوين النملة التى تكاد أن تكـــون نقطة من سن قلم رصاص مدبب ومع ذلك تلسع لأن بداخلها التكوين الذى يمكنها من الحركة ومن اللدغ.

تشـــعر أن الكـــون الموضوعى ليس هو الكون المقتصر على الإنسان فقط بل له جماله بما فيه مما يثير الخشية والخوف وما يثير الأنس والجاذبية والرضا.

هذا الكون الموضوعى يعلو فى أفق الشاعرية والموضوعية

فوق الكلاسيكية والرومانسية والواقعية.

وهـــذه التعاريف الثلاث: الكلاسيه والرومانسية والواقعية وما بعدها جاءتنا من الفن الأوروبى.

وكلـــنا حين نقف أمام الفن الصينى أو الفن الفرعونى فنحن حقيقة على مشارف رحـــاب أعـــلى بكثير من رومانسى أو واقعى أو كلاسى. لماذا؟ لأن هذه فنون توفرت على تأمل الحقيقة الكونية الشاملة التى يعتبر الإنسان جزء يسير فيها.

أشرنا حتى الآن إلى نقاط ثلاث هى:

الخروج من الذات

اليقظة والرياضة

والقانون والحرية

٤. والنقطة الرابعة هى التركيز

بمعـــنى كيفيـــة الوصول إلى الخروج من الذات واليقظة إلى وجود هذه الحضرة الكبيرة الشاملة الغامرة الكونية.. الحياة الأم الكبيرة جدا. والتمرس فى هذا التركيز فى التعاطف مع الخلق الطبيعى.

فما هو التركيز؟

هو لَمّ شمل النفس فى بؤرة واحدة

بمعـــنى أن أمامى شجرة مثلا أو طائرا أو ريشة أو زهرة أو الخ فأنا ألمّ شمل نفسى أى لا أسرح بل أركز فى بؤرة واحدة هى موضوع هذا التركيز فإذا هذه البؤرة تتسع وتتسع وتتحول البؤرة الواحدة إلى عالم واسع. حتى لو كانت ذرّة. والذرّة الآن كـــلما ركـــز حولها العلماء كلما ظهرت مكوناتها أوسع واصبحت اليوم غيرهـــا منذ خمسين عاما فقد رأوا فيها جديدا بحيث أصبحت الذّرة شيئا مخيفا.. عالما رهيبا

فالبؤرة تتسع وتتحول إلى عالم واسع ويتحول التركيز إلى تأمل تسرح فيه النفس فى آفـــاق هـــذا ا لعـــالم الجديد الذى جلاّه لها التركيز. وهكذا يتعمق كل من المتأمِل والمتأمل فيه حتى تكاد أن تتلاشى بينهما الحدود. وأصبحت الذات الأولى التى بدأت تحاول أن تتعرف على الوجود الموضوعى وتخرج من ذاتها هى نفسها. يتسع وعيها لأن:

نفسك هى كل ما وعيت
ويقول بعض العلماء حتى
شبه ما وعيت.

إذن أنت حين تركز فأنت توسع آفاق الوعى الذاتى لك عن طريق هذا التركيز.

٥. مواصلة التأمل :

وكلما عاودت النفس التركيز وتعودت عليه ومارست التأمل وصارت جادة فيه كـــلما اتسع أمامها وفيها أفق الوجود. بمعنى: لو أنى بدأت بالشجرة فوجدت أن الشـــجرة لا يمكن لها أن تعيش بدون التربة وبدأت التركيز على التراب أجد أن هـــذا الـــتراب أو الطين الذى فكرتنا العادية عنه أنه.. طين. هو أيضا عالم زاخر واسع والمخلوقات الموجودة بداخله والتى تخدم النبات هى أيضا عالم ودنيا زاخرة .. هذا الطين هو أكبر معمل كيماوى وما بينه وبين عطاء هذه الشجرة فى الرحلة الـــتى تحفـــظ الغذاء داخل جذر وجذيرات الشجرة وساقها وفروعها وأغصانها وثمارها: عملية رهيبة حين أعى هذا فإن أفق وجود ذاتى يتسع.

وما زال هذا الأفق يتسع وتترامى أطرافه وتتسع آفاق الوعى وتسمو إلى ما شاء الله خاصــة إذا بدأت انتقل إلى تأمل الشمس وضوئها والكلوروفيل والعمليات الــتى تتم فى ورقة الشجر.. ثم تصنيع النشويات وغيره.. وغيره.. أجد أنى خرجت من ذاتى غصبا نتيجة هذا التركيز.

٦. ملازمة العمل والفكر.. والفكر والعمل.
هذه الرياضة النفسية تزداد قيمة إذا صاحب الفكر العمل.. وإذا كان الفعل قرين السياحة المعنوية وكانت السياحة دليل العمل والعمل فتح لآفاق جديدة من المعنى تدعو النفس إلى التحليق فيها.
فى هاتين الكلمتين يتلخص العمل الفنى الرائد الأصيل.
لأن العمــل الفــنى الرائد الأصيل هو الذى يحاول أن يستكشف آفاقا جديدة فى الوجــود لم يكن من المعتاد التعرف عليها من قبل فيبدأ الناس فى التعرف عليها وهذا عمل أصيل ورائد لأن صاحبه هو الذى استكشف وهو الذى تعرف على.. وحقــق هــذه القيم الجديدة فأصبح رائدا وأصيلا فى نفس الوقت. وتزداد هذه الرياضة النفسية قيمة إذا صاحب هذا الفكر عمل. فإذا كنت أرسم أو أنحت أو أقوم بأى عمل فإن هذا العمل قرين السياحة المعنوية التى اكتسبتها فى دنيا المعنى.

٧. وكــلما كــانت الدقــة فى المواءمــة بين العمل والمعنى.. وكانت الأمانة فى استشــفاف المعنى تستدعى الدقة فى المواءمة كلما تفتحت وترفعت الخبرة المتاحة التى هى عطاء العمل. وقاربنا الإتقان. ولكن الإتقان يتباعد كلما قاربناه.

٨. وقد اخترنا الرسم كوسيلة للعمل. والرسم عندنا وسيلة وغاية والتأمل بالقلم الرصــاص فى عملية الرسم الذى يتغيى التوحد مع الخلق الطبيعى والتعاطف مع مــنهج بــنيانه فى الوجــود الكونى وسيلة وغاية فى وقت معا: هو وسيلة لأنى استكشــف أكثر من خلاله فى دنيا المعنى مما يمكن أن يشعه الوجود الذى يغلف ذاتى ويغمرها ويغمر كل شئ آخر.

وهو غاية لأن التودد والتعرف والتحبب إلى هذه المعانى هو فى ذاته غاية.

٩. العشق الإلهى :

لكـــل هذا يظل الإتقان والدافع إليه قوى وخفى وصاحبه مسيّر وحر. مسيّر لأنه لا يمكنه التوقف عن التأمل والعمل والإتقان.وحرّ لأنه لا يريد أن يتحرر من هذا الأسر. هو يشعر بحريته فى استجابته للدافع الخفى القوى فى داخله.

لكل هذا يظل الإتقان والدافع إليه قوى وخفى لا يترك للعامل فرصة اطمئنان إلى عملـــه واقتناع أخير به: فهو غير مطمئن وغير مصدق لكلمات المديح التى تقال عـــلى عـــلمه لأنه يرى أكثر مما وصل إليه ويعرف أن هذا العمل ناقص. فكلما تحقـــق جانب من الإتقان استدعى المزيد. لذلك قلنا أنه كلما اقتربنا من الإتقان بَعُـــد، وكلما تحقق المزيد استوجب الأكثر وتطلب الأقرب إلى غير انتهاء. وهذا طـــرف من العشق الإلهى. فهكذا يعرفه المتصوفة فهو ليس عشقا بالمعنى الشائع عند العامة. لذلك نجد أن كلمة العشق الإلهى غامضة بينما العشق الالّهى موجود عند كل من يطلب الأعلى والأسمى والأنبل والأعظم والأجود والأجمل والأجل. وعند كل من لديه دافع قوى وخفى يجعله لا يستريح لأنه كلما رأى رأى أكثر أحبَّ أكثر القيم الجميلة الجليلة الكاملة العظيمة النبيلة الرفيعة السامية.

هـــذه هـــى طرق العشق الإلهى فهو ليس مجرد سبحة وسجادة وصلاة. بل إن للعشـــق الإلهـــى مسالك متعددة وفى كل عمل من الأعمال ممكن – طالما تتغى الإتقـــان فيه – أن تمارس فيه العشق الإلهى وكأنما كان الحديث "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" إشارة وتوجيه إلى قوله تعالى "يحبهم ويحبونه" فهنا يحب الله هذا الإنسان عن طريق أن يجلّى له من القيم التى يتعشقها.. ويحبونه لأنهم يطلبون المزيد من التوحد مع هذه القيم والتواصل معها.

أما إذا خفت داعى الإتقان وانطفأت فى القلب جذوة الطلب: طلب ما هو أعلى وأسمـــى وأعظـــم وأدق وأكثر إتقانا فى العمل وامتلأت الذات بالذات ولم ير فى الدنيـــا غيره ولا يوجد من قام بعمل خيرا من عمله كان الخسران الحقيقى حيث

يبدو النجاح الظاهر - حتى لو صفق له الناس - هو خسرانه الحقيقى: لأن المقصود أن يخرج من ذاته ولا يعود إليها أما كونه تحول إلى عبادة الذات فهذا نقيض الخروج من الذات وهو النكسة الحقيقية:

إن الدعوة إلى الإتقان هى دعوة إلى صعود سلم القيم
دعوة إلى تنبيه الأعماق إلى الأعماق
دعوة إلى أن ترتفع الذات حتى تترك الهوى
وبدلا عن النفس الأمارة بالسوء تصبح النفس المطمئنة
التى هى على وفاق مع الله وتسير بهديه
دعوة إلى اليقظة التى تؤدى بدورها إلى رياضة النفس
ومحاسبتها بل وتمحيص جوهرها وتنقيته من الشوائب
ليبقى الجوهر نقيا.

١٠. المصير :

وإذا كان الإتقان يتغيى التوحد مع منطق الخلق أول الأمر، وهذا يتطلب التوحد مع منطق إبداع المبدعين من قبل فالمبدعون السابقون فى البشرية يسيرون على الطريق وأنا اقتفى أثرهم وأتزود بزادهم الذى يساعدنى على تحقيق الغاية التى أسعى إليها ...

وكانت غاية الإتقان لا تدرك وإن كانت تستحق وتلهم فإن التعاطف مع منطق التاريخ - أى أعمال نسابقين - من جهة ومع جوهر الوجود أولا وآخرا بدأ طرفاهما يتوحدا مع منطق الخلق الطبيعى فى سيرة واحدة هى المصير.

٣

وأتكلم عن التوحد مع منطق التاريخ.

هـــناك مـــا يسمّى تاريخ فن وإن كان - حتى اليوم - لا تدرك وظيفته أو مادته الأساسية، ولا ماذا يعنى.

أقـــول إن ما أقصده من أدبيات التشكيل البشرى ليس أن أعرف تاريخ الفنون. كـــلا. إنما أ أتعرف وأوجد صلة حميمة بينى وبين منجزات الإنسان فى العصور العظيمة للحضارات الكبيرة، ونشأة الحضارات التى وفقت فى إنجاز أمثلة محسوبة فى التشكيل.

ليـــس من الضرورى أن تكون حضارة عظيمة ففنون ما قبل التاريخ البدائية بها أشـــياء عظـــيمة جدا دون أن تكون حضارة عظيمة.. إنتاج الزنوج فيه فن ممتاز ورائـــع دون أن يمكننا أن نقول أن حضارته عظيمة بنفس المعنى الذى يمكننا أن نقول أن الحضارة الصينية أو الهندية أو المصرية حضارات عظيمة.

تعرف الإنسان على هذه المنجزات فى
التشكيل البشرى الرائعة الممتازة جزء
ضرورى فى تقديرى لتكوين الإنسان المثقف.

من هو المثقف؟

هو الواعى والناضج فى عقله وقلبه وحسه.

ولكى نحصل على هذا الإنسان فإن على التربية الفنية دورا. جزء منه هو تعريفه وربط صلة وثيقة بينه وبين منجزات البشرية العظيمة، ليس فى أوروبا أو فى مصر فقـــط بـــل فى مختـــلف الأماكن والأزمنة طالما هو إنتاج ممتاز - وجزء آخر هو

التشـــكيل الكـــونى فى كل الكائنات سواء الذى يتكشف لنا عن طريق البصر العادى أو عن طريق الميكروسكوب بأنواعه أو عن طريق التلسكوب.

ماذا يعنى التوحد مع منطق التاريخ؟
يختلف الإنسان عن الكائنات الأخرى فى أن له تاريخا بينما الكائنات الأخرى لها تاريخ طبيعى. فأنا كفرد لى تاريخى الخاص ولكنى جزء من مجموعة بشرية معينة لها تاريخ. ثم هناك أجناس البشر، ولكل تاريخه تاريخ البشرية كلها. هنا التوحد مـــع مـــنطق هذا التاريخ جزء أساسى وضرورى لثقافة الإنسان بعامة وإن كنا نتكلم عنه اليوم فى مجال الفن التشكيلى.

بمعـــنى بســـيط؛ أنـــا اليوم فى السبعينات من عمرى غيرى أيام سن اكتمالى فى الأربعينات غيرى فى العشرينات. فمنطق التاريخ اليوم يحتم علىّ سلوك من نوع معين.
كذلـــك بـــلدى مصر فى هذا العصر عليها دور غير دورها الذى لعبته فى الفترة الإسلامية أو المسيحية أو الفرعونية.

أنـــا لســـت فقط إنسانا مصريا أعيش فى هذا العصر بل أنا أيضا بشر فلابد أن يكون توحدى حصيلة حركة بثلاثة محاور غير محورى الذاتى كفرد
هى محور التاريخ المعاصر
ومحور التاريخ القومى
ومحور التاريخ البشرى
فـــإذا أردنـــا وجود فنان جاد فى أى بلد من البلاد فلابد أن يتحرك مع حركة عصـــره وفى نفس الوقت مع حركة القومية التى هو جزء منها سواء كان انجليزيا أو ألمانيا أو مصريا.. الخ - ولو قرأنا لعرفنا أنه فى أوروبا كانوا يُفرِّقون بين شمالها وجـــنوبها وأن فى انجلترا بالذات كانوا ثائرين لأنهم اعتبروا أن الجنوب الأوروبى أســـرهم بينما هم قلبيا تابعون للشمال.. أتكلم عن الواعين المتقدمين والمتخلفين

التابعين وعن كيف أن الفكر فى العالم الواعى يدرك أن له عبقريته الخاصة ويحاول أن يجدها حتى يجد نفسه ليكون حرا.

قلنا حركة العصر والتاريخ القومى ثم تاريخ البشرية هذا بعد أن يكون قد توحد مع منطق الخلق الطبيعى.

ولا يعنى التوحد مع منطق التاريخ موقفا سلبيا بل إيجابيا خلاقا؛ إذ أن الإنسان بلا خلاقية إنسان مسلوب الإنسانية.

أى أنى حين أتعامل مع أى تاريخ من التواريخ الثلاثة أنا لا أسلّم نفسى للتاريخ سلبيا بل أتفاعل معه بإيجابية وخلاقية طول الوقت وإذا لم أمارس هذا فأنا لم أمارس حق وجودى بمعنى أنى ألغيت جزءا أساسيا من بشريتى.

ولكن الخلاقية شيء والبدعة شيء آخر.

الخلاقية حركة بمحاذاة سنّة الوجود

والبدعة خروج على هذه السنة

الخلاقية إئتلاف والبدعة استطراف أو استخفاف.

الخلاقية دفعة موضوعية والبدعة من الهوى

الخلاقية تكامل.. والبدعة إنحلال

لقد أكدت الفرق بين الخلاقية والبدعة لأنه فى كثير من الأحيان مايظن المرء أنه يدافع عن الخلاقية وهو فى الحقيقة أسير البدعة، لأنه لم يفهم الخلاقية، لا يقدر علي الرقي لمستوى الخلاقية فيذهب للسهل الذى هو مجرد بدعة.

أما محور العصر فالتعرف عليه قبل التوحد معه أمر شاق؛ إذ أن بريق الأحداث قد يشد الإنتباه بعيدا عن جوهر العصر، وبريق المودات والسمعة قد يغوى النفس المشوقة إلى مظهر المعاصرة وسمعة التجديد.

ولكن المعاصرة الحقة تتطلب إدراكا لما كان من قبل

وإدراكا لما هو كائن بالفعل

ووعيا بما ينبغى أن يكون

هو نفحة من الأعماق ولا أفرضه بقانون
هذه النفحة تتطلب معيارا للصواب والخطأ
للتوفيق والإخفاق.
وهــذا يتطــلب أن تكون الحركة على المحاور الثلاثة حركة عليها كلها فى آن واحد.

قــد يتســاءل سائل عن أن حديثنا عن الإتقان فى الفن وأتكلم عن التوحد مع الــتاريخ. لهذا أقول أنى أتكلم عن الفن من جذوره. فحين تريد أن تعرف كيفية التواصل مع العصور السابقة فأنت ستتواصل مع أعمالها الفنية لأن هذه الأعمال الفــنية هــى ثمــرة حياة هذه العصور فلكى أعمل فنا اليوم فلابد من الرجوع لــلجذور وهى ما يسمى بالتاريخ وإلى أين وصل اليوم - وفى أى عصر نعيش؟ وماذا يفعل هذا العصر؟ وما إيجابياته وسلبياته؟ ولماذا هو بهذا الشكل؟
أرى هــذا العصر من أفق تيار التاريخ البشرى ومن زاوية التاريخ المحلى الذى أنا جزء منه.

لقد تبين لى أن العصر الذى نعيش فيه عصر توحد فيه العالم ماديا.. وتأزم معنويا ..
تقدم تكنولوجيا وعلميا.. وتقهقر أخلاقيا ومعنويا..
تجبرت فيه الوسائل.. وضلت الغايات.
أنــا أنظــر للعصر لكل ما فيه من سياسة واقتصاد وسلام وحرب وفنون وعلوم ومجــلات وكــتب وسينما ومسرح، كل هذا فى نظرة واحدة، فيها إلى جانب المعايشــة المباشــرة حــين تتاح للمرء، المؤلفات التى تتناول هذا بالنقد والتقييم والعرض.
وكان لهذا كله أثره على الفن. فأصبح الفن فى ناحية والحياة فى ناحية.
أصبح الفن مشغولا بالوسائل وبلا غاية..
أصبح الفن منبوذا من الحياة إلا إدعاء.

تجد كثيرا من صفوة المجتمع يتكلمون عن الفن ومهتمون به ورعاة له ولكن هذا نــوع من التظاهر بالثقافة ومن أنهم يفهمون. ولكنه إدعاء وليس اهتمام بقضية حقيقية تتناول جوهر حياتهم.

أصبح الفن مظهرا لخواء الحياة من المعنى والمضمون.

يشــرح هذا من ناحية غير الناحية التشكيلية – قصيدة"ت. إس. إليوت" الشاعر الانجــليزى عن "الأرض الخراب" التى يقصد بها العقل أو النفس البشرية فى البلاد المتقدمة كما هى: تعانى أزمات هذا العصر الذى نعيش فيه.

ولكن الفن مع هذا قد أبرز عاملين فى العملية الفنية التشكيلية:

عامل الشكل.. وعامل الرمز. وركز عليهما فى فترات مختلفة. وركز عليهما كما لم يركز عليهما عصر من قبل:

ففى فترة التكعيبية كان يركز على الشكل: التجريبية والتجريد.

وفى فترة السيريالية كان يركز على الرمز

ولكــنه لم يحاول أن يجمع بين الشكل والرمز ويركز عليهما ويرى ما بينهما من علاقة إن كان ثمة علاقة.

وما زالت النظرة إلى العملية الفنية تُرى من أفق يعزل الفن عن الحياة:

ففــى الــربع الأول مــن القرن الحالى كان هناك مشكل الفن الأكاديمى والفن الحديث. وظهرت كتب كثيرة فى النقد تحاول أن تنقد الفن الأكاديمى وتبرر الفن الجديد الذى كان فى وقتها هو التكعيب والتجريد وبداية الدادا والسيريالزم.

كان الفن – فى هذه الفترة – فعلا نتيجة التغيير الذى حدث فى الثورة الصناعية، وانــتهاء النهضة فى ركن هامش فى الحياة. هذه نظرة: الرأسمالى الذى كان يعتبر الفن نوع من الترف المقصود به المتعة الثقافية لا غير.

والــنظرة الــثانية ترى الفن جزءا من حياة، العامل الأساسى فيها هو الإقتصاد: النظام الإشتراكى

وكلاهما يرى الفن من أفق يعزله عن الحياة:

فنظرة تختصر الإنسان وثقافة الإنسان إلى محل ثانوى وإنتاج جانبى
نظــرة لم تر فى الأخلاق والمعنويات إلا ترّهات وعلل وأوهام يترفع
عنها التقدمى ويقع فى حبائلها المتخلف الراكد.

وفى المعسكر الشرقى كان الفن يستخدم كسلاح للدعاية:
من هنا وُجد ما يُسمى بالفنان فى البلدة العسكرية ويخضع للحزب.

تــبيّن لى أن العصــر قــد أسكرته القوة وأذهله العلم والثروة، وتجبّر فيه العقل واللاعقل.. وأن الفن قد ضاع بين الهواية والغواية.. والتجارة والإدعاء.. والسلطة والدعاية.. واعتصم بأنحاء النفس المشتتة الحيرى.

يقول بيكاسو:

إننا لا نعمل اليوم فنّا لجدران المبانى
ولكننا نقدّم النفس البشرية.

هذا صحيح. ومعروف أن الفن كله يقدم النفس البشرية. ولكن ما يريد بيكاسو أن يقوله حقيقة هو أن الفن ا ليوم أصبح فيه الفنان مشغولا بالتعبير عن ذاته هو.. هو يعمل ما يهواه.. ثم يقدمه لبعض من أصدقائه أو زملائه من الفنانين أو الهواة.. وهذا غاية ما فى الأمر.

أما هربرت ريد فيقول:

إن الفن اليوم ضائع ما بين الــ Delitentism والــ Dealerdum
وــله مقالة كبيرة عن مستقبل الفن التشكيلى، يقول فى نهايتها: إنه من الجائز فى آخــر المطاف أن يوضع الفنان فى حديقة الحيوان على بطاقة تفيد أن هذا فنان. كتلك التى تكتب على السبع والفيل والشنبانزى.

وفى نفس المقال ألمح إلى كلمة للشاعر الإنجليزى تى. إس ، إليوت يقول فيها:

إنه يكتب الشعر على ظهر تذكرة الأتوبيس الذى يركبه فى طريقه إلى عمله كمستشار فى دار نشر.

ذلك أن الشعر فى وقته لم يكن من الممكن أو يعوله.

دلالة هذه الأقوال أن الفن – سواء كان شعرا أو تصويرا – لم يعد مطلوبا فى هذا العصــر إلا إذا كـــان فى دولة بها السلطان الكلى فى أن تستخدمه فى أغراضها السياسية.. أو فى بلد رأسمالى حيث هو حر يعمل لهوايته أو لاسترزاقه.
هذا هو الوضع الراهن.

وأبحـــاث مجموعتـــنا فى الأربعينات كانت تتناول هذه الكتابات وغيرها مترجمة لتمحيصها ولتواجه الواقع كما يجب.

إلا أن هـــذا العصـــر قد تفتح واعترف بفنون الإنسانية منذ نشأها الأولى. ولم يحـــدث أن قام أى عصر آخر من قبل بهذا العمل. وفى شتى أنحاء الأرض وعلى كافة المستويات أى ابتداء من فن الطفولة إلى فن المرضى عقليا إلى كل المذاهب الفنية على اختلافها.
ولكنه قصّر فى إدراك معنى الحياة:
ويتناول مشكل حياة الإنسان اليوم كثير من أساتذة علم النفس: يقول يونج وهو يعتـــبر إمـــام فى هذه الناحية. إن غالبية الناس الذين يترددون على عيادته للعلاج النفسى – وهم من طبقة المثقفين – مشكلهم الأساسى أهم لا يرون معنى للحياة.
وهذا حقيقى:

فإذا أردنا اليوم أن نبحث عن الفلسفة السائدة فى العصر لندافع عنها نجـــد أن العصـــر يدافـــع عن دولة أمام دولة أو مجموعة دول أمام مجموعة دول أخرى أى مسألة قوة أو ثروة..
هذا هو معنى الحياة الحقيقى اليوم.

وغيـــاب المعـــنى الحق للحياة تعانى منه ثقافة الإنسان لهذا أضاعت عليه الفرصة للـــتعرف البصـــيرى لتراث الإنسان فى الفن إلا فى القلة القليلة من قمة المفكرين "كمالـــرو" مـــثلا وغـــيره ممّن عندهم الوعى العالمى لإدراك الإنسان والواعيين

بالمضامين البصيرية لهذه الفنون.

أمـــا عامـــة المثقفين وعامة الفنانين فهم بالكاد يعرفون أن هناك فنا مصريا وآخر بيـــزنطيا أو قوطيا وهنديا وصينيا وزنجيا أما ماهية هذه الفنون وماذا تقول هو لا يعـــرف.. إنما تحت فكرة أنه رأى بعض هذه الفنون هو مستعد أن يأخذ أى فن منها باعتبار الشكل المجرد الظاهر. وهذه نظرة ضعيفة. أو يأخذه من أفق معقول أو لا معقول.. أو تجريدى أو غير تجريدى.

فى هـــذا الوضـــع الجديد لابد من قاموس جديد ومفاهيم جديدة. من هنا كان تركيـــزنا على التنبيه إلى فقه الحياة ومعناها: فنحن كأصدقاء فن وحياة لابد أن نعـــرف معـــنى الحياة ونبحث بعمق: العصر الفرعونى مثلا حين جاء وأقام تلك العظمـــة الكـــبيرة هـــل جاءت تلك العظمة من الهواء أم أن هؤلاء الناس كانوا مدركين أن هناك قيمة لحياتهم لذلك جشموا أنفسهم الصعاب لتحقيق المستحيل الذى أقاموه. إن من أقاموا الهرم الأكبر قوم تعمدوا أن يحققوا المستحيل وحققوه. وحين اعترضت طريق الهرم الثانى ومعبد الوادى صخرة كبيرة أقاموا منها – لأول مرة فى التاريخ – تمثالا كبيرا هو "أبو الهول" هذا الرمز الرائع.

لابـــد أن هؤلاء الناس كانوا ممتلئين بفيض من حيوية داخلية دفاقة وغزيرة بحيث أنه لم يكن ليحل هذا التوتر لديهم إلا هذه الأعمال العظيمة الرائعة، التى لا زال العـــالم لم ينته من اندهاشه لكيفية إقامتها بذلك السمو الكبير والجلال والعظمة الخرافية: اللامعقول الحقيقى الفوق العقل لا التحت العقل.

إذن مـــاذا كـــان معنى الحياة عند هؤلاء الناس. هل ظنوا أن الحياة لا قيمة لها؟ مســـتحيل، لما أقاموا الأعمال الدقيقة الدقة الخطيرة والكبيرة هذه، والجماعية التى كانوا يعملون بها وليس فرد وحده.

ماذا فهموا من الحياة؟

لماذا كان لديهم ميزان للقلب يوزن فيه أمام الحق كلّ فى كفه؟

ولماذا كان يعذب صاحب القلب الذى يفتقد العدل والحقيقة؟

إنهم كانوا يدركون أن هناك قيما إيجابية..

لم يكن عصرا عدميا. بل عصرا مليئا بالإيمان.

هذا الإيمان هو معنى الحياة الفرعونية.

إيمان بالإنسان وبالوجود

وبالقدرة وراء هذه الوجود

إيمان بالعمل وبإتقان العمل

هذا هو ما صنع عظمة مصر القديمة

صنعها لأول مرة عبر التاريخ واستمرت - حقا لقد تعرضت لهزات ولكن كان لديها القدرة والحيوية ما مكنها من أن تعيد بنيان ذاتها مرة واثنين وثلاثة. وحين وقع هذا الشعب الذى مارس هذه التجربة الحياتية تحت الأسر قاوم ولم يستسلم وحين جاءت المسيحية وجد فيها ما كان يحن إليه فى حضارته القديمة فى أعماقه لأن هناك شبها كبيرا بين أوزوريس والمسيح. وجد فى المسيحية تحقيقا لضميره القديم. وكذلك وجد فى الإسلام فيما بعد:

أن هناك إيمانا بالبعث

وإيمانا بالقوة الكبيرة وراء الكون

وهناك إيمان بالعدالة الاجتماعية الكبيرة

وبعد هذا كله وفوق هذا كله هناك القيم

الحضارية الكبيرة التى كانت مصر القديمة رائدة فيها

والتى كانت هى المضمون الحقيقى للفن الفرعونى

ولإدراك هذا، الإدراك الصحيح يمكننا أن نقارن الفن الفرعونى بالفن الأشورى أو بالفن المكسيكى: هناك شئ من الغشومة فى الفن المكسيكى وشئ من التحت حضارية فى الفن الأشورى أما فى الفن المصرى فهناك رهافة الحضارة والإنسانية المتحضرة التى نتطلع إليها حتى اليوم والتى لا تتضارب مع الروح المسيحية ولا مع الروح الإسلامية.

أنـــا لا أتكلم عن العقائد النظرية فقد كانت وثنية إنما أتكلم عن الضمير البشرى الذى يعمر هذه الأعمال. كنا نبحث عن فقه الحياة ومعناه وفقه التشكيل ومعناه وكـــان هذا البحث موضوع أحاديث عام من الأعوام السابقة حين كنا نذهب للمـــتحف المصـــرى والقبطى والإسلامى ونتساءل لماذا أخذ التشكيل هنا هذه الصـــورة؟ لأن معـــنى الحياة كان كذا. وهناك تغيرت الصورة، لأن معنى الحياة تطور بالشكل الفلانى وهكذا.

فى عصـــرنا الراهن فى المستوى العام فى البلاد المتقدمة لا يحاولون [illegible] الفن نفســـه كله على هامش الحياة. ومن هنا كان عدم اكتفائنا بالفنون المعاصرة رغم تقديـــرنا لنجاحها المحدود، وكان اهتمامنا بالفنون الإنسانية فى عصورها العظيمة واهتمامـــنا بـــإدراك البصائر الحياتية الكامنة فى تشكيل هذه الفنون. قمنا بنفس الطـــريقة حـــين تناولنا الفن الهندى والصينى. كنا نبحث عن فقه الحياة الهندية والصينية ولماذا أخذ الفن الهندى هذه الصورة وكذلك الصينى.

هذا أيضا من ضمن الثقافة التشكيلية المطلوب ممارستها فى التربية الفنية. تبين لنا أن معـــركة الشـــكل المجرد والمشخص التى ما زالوا هنا يتحاربوها قد انتهت من مدة وأصبح الجدل السائر تعبيرا ينبثق من رؤية سطحية لمفهوم الفن. ما هو الفن؟ ولمفهوم الطبيعة. ما هى الطبيعة؟

مفهوم الخلاقية.. مفهوم الحياة.. مفهوم العلاقة بين الفن والحياة.

كـــانوا يتكلمون فى الربع الأول من القرن الحالى عن تقليد الطبيعة بحيث أن أى فـــنان يرســـم من الطبيعة يظن الناس أنه يقلد الطبيعة وكانوا يستخدمون كلمة تطوير الطبيعة أو الخروج عليها.

كل هذه مفاهيم فجة ومبتسرة وسطحية لمعنى الفن ولمعنى الطبيعة ولمعنى الخلاقية نشأ عـــنها الوضع الراهن للفن وهامشيته وانفصاله عن الحياة وانفصال الحياة عنه. ونشأ عـــن ذلـــك مشاكل عديدة فى التقدير الفنى والتخطيط الفنى والتربية الفنية والتعليم الفنى.

.وكـــان لابـــد من وقفة جديدة نتناول فيها وظيفة الفن الأساسية كما كان الفن يؤديها عبر عصور البشرية بعامة وفى هذا المكان على وجه الخصوص.

ما هى وظيفة الفن؟

لابـــد أن يكون لدينا وضوح عما كانت عليه الوظيفة الأساسية للفن كما كان فى تاريخ البشرية بعامة وهذا البلد بخاصة.

كما كان لابد من الدعوة إلى إعادة بناء الشخصية المصرية ودور الفن فى توضيح معنى هذه الشخصية ودوره فى إعادة البناء.

وهـــذا هـــو محور نشاط أصدقاء الفن والحياة: وهذا النشاط شطران متضافران، عمل وفكر. والإتقان هنا هو الوحدة بين العمل والفكر.

فلابد للعمل أن يشرح الفكر..

ولابد للفكر أن يكون بابا للعمل.

يشرح ويكمل الإثنان بعضهما البعض.

إذن لـــتحقيق الإتقـــان لابد من الحركة على المحاور الثلاثة فى سبيل التوحد مع الـــتاريخ حـــتى أُصبح جزءا من التاريخ الحى وليس حفرية من التاريخ وعلىّ أن أسعى وسع قدرتى وقدرى أن أكون جزءا من العصر الحاضر.. وجزءا من التاريخ القومى.. وجزءا من تاريخ البشرية وأن أعمل بإيجابية خلاقة.

ماذا أصنع؟

أنا مولود بذات فردية وأريد أن تكون لى شخصية.

هناك فرق بين فردية وشخصية:

كـــل منا يولد بفردية بمعنى ألاّ أحد شبيه الآخر وبصمته تختلف عن الآخر معظم الناس تموت بفرديتها.. لا ينمو حتى تتكون الشخصية. ولكى ينمو عليه أن يحاول عن طريق ثقافته الشخصية وبحثه وعن طريق توسيع وعيه أن تكون له شخصية.

فالشخصية وعى خلاق للقيمة

ومـــا لم يتكون عند الإنسان وعى وقدرة على خلق القيمة فهو إنسان

فرد وليست له شخصية بعد.

فما هى الشخصية المصرية؟

هـــى عبارة عن الوعى الذى نما فى هذا المكان من الأرض مصر فى تلك العصور فى فجـــر الـــتاريخ والذى توصلوا من خلاله أن يخلقوا قيما تشهد عليها أعمالهم الفنية. هذه هى الشخصية المصرية.

وهـــذه الشخصية تعرضت فى الماضى أيام الفترة الفرعونية إلى هزات ونكسات وأعـــادت بنيان نفسها. ثم استمرت قرابة الألف عام تحت تأثير الضغط الخارجى حـــتى جاءت المسيحية وبدأت تعيد بنيان ذاتها فى ضوء المسيحية وأصبحت مرة ثانيـــة مـــن رواد الحضارة فى العالم لأن مصر أصبحت رائدة فى المسيحية وكان الرهبان وآباء الصحراء من زعماء العالم ثقافيا روحيا ومعنويا. وكانوا فى مقدمة مـــن يفســـرون معنى المسيحية. بدأت مصر تستعيد شخصيتها وتركت المفاهيم السلبية للإيمان المصرى القديم وانتقلت لمفاهيم الديانة المسيحية.

وحـــين جاءها الإسلام وجدت أنه لا خلاف جذرى بين المسيحية والإسلام إلا أن الـــناس فى المســـيحية كانت تنطوى على أنفسها وتكتفى بداخلها لأن الحياة كانت تابعة لقيصر وتقول المسيحية أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ولكـــن حين جاء المسلمون قالوا نجاهد فى سبيل الله ونجعل كلمة الله هى العليا رغم أنف قيصر وكسرى الاثنين.

قـــال الإسلام الملكوت فى القلب نعم، لكن الله فى كل مكان، وأنا مكلف بأن أجعـــل كـــلمة الله هى العليا وأن أجاهد فى سبيل الله باستمرار، وأن أقبل على الحياة، فلا رهبانية فى الإسلام.

وجدت الشخصية المصرية فى الإسلام تحقيقا لها لم تترك المسيحية فالمسلم الحقيقى لابـــد أن يؤمن ويقيّم ويقدّر المسيح وموسى وكل الذين جاء ذكرهم فى القرآن والذين لم يذكرهم القرآن طالما يدعون إلى الحق.

لماذا قبلت الشخصية المصرية هذا؟ لأنه يكمل رسالتها الأولى.

ولمـــا ضعفت الخلاقية المصرية مع العالم الإسلامى تحت تأثير الترك وبدأت القوة تذهـــب لأوروبـــا وجـــاء نابوليون ومن بعده انجلترا أصبحت تحت تأثير التبعية الأوروبية.

انحـــلت شخصـــيتنا. ومـــن هـــنا نحاول أن نطالب بالتنبه إلى أهمية إعادة بناء الشخصية.

كان لابد أن نحرر الأرض
ثم نحرر الإقتصاد
ونقول وعلينا أن نحرر الثقافة
الثقافة بمعنى معنويات الإنسان

نعانى حاليا من الأسر ونقول هذا فرنسى هذا انجليزى هذا مودرن هذا تكعيبى أو ســيريالى. لســت ضد هذا إطلاقا بشرط أن يكون بوعى أنه خطوات مرحلية لإعادة بنيان الشخصية لأنى لا يمكننى أن أعيد بناء الشخصية عن طريق الإنعزالية إنما عن طريق أن أتعرف على العصر بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات بخلاقية – ومع النقد. لأنه لا خلاقية بدون نقد خلاق بمعنى إبداع بإيجابية فعالية وقدرة على تشكيل قيم جديدة ونمو ها.

قد يتساءل البعض عن هل الشخصية المصرية قاصرة على الإبداع الفنى؟ أو ليس الفـــلاح المصـــرى ذو شخصية. أقول نحن نحترم ونحب الفلاح المصرى باعتباره حفـــرية مصرية لأن به بقايا من الفرعونى والمسيحى والإسلامى ولكنه لا يتمشى مـــع حـــركة التاريخ ونحن نطالب بمن يسير مع صدر موجة العصر؛ يضيف ولا يكتفى بمجرد الأخذ. صحيح إن الفلاح المصرى لم يتعرض لأسر المودات الزائفة لكنه أيضا لم يتمتع بالقدرات الجديدة التى جاءت مع العصور الحديثة والتى لابد وأن نجعلها لنا حتى تنمو الشخصية المصرية.

الشخصية المصرية ديناميكية وليست استاتيكية
ليست ردة إلى الخلف بل هى حركة إلى الأمام

لقد أثارت ممارسة الحركة على المحاور الثلاث مجموعة معقدة من المشاكل شاغرة وتتطلب الفقه العميق.

لم تكن الإجابات الشائعة والمسلم بها.. ولم تكن الردود الحاسمة القاطعة بالإثبات أو النفى كافية. كان الأمر يتطلب الصبر وسعة الصدر وتعليق الحكم. كان الأمر يتطـلب الدرس بتغذية الخبرة الذاتية وتوسيعها. كان الأمر يتطلب عدم الوقوف عـند حـدود الفن، أو حدود العلم، أو حدود الدين، أو حدود الإجتماع، أو حدود علم النفس، أو حدود الذات. كان الأمر يتطلب إعادة صياغة هذه الذات الجديـدة. أصبحت أنا يا مصرى لا تكفينى هذه الذات القديمة ولا تقنعنى. وأنا أثـور عليها وأريد أن استبدلها. وتذكرنى كلمة لنيتشة يقول إن المفكر لابد أن يكـون كالثعبان يغير ثوبه كلما ضاق عليه. ونحن قد ضاقت علينا الذات القديمة ونـريد ذاتـا جديدة بتكامل جديد : ذاتنا القديمة توقف نموها ولو أن وعينا لم يـتوقف مـن بعد الحروب الصليبية ولا الترك وظل ينمو مع نمو العصر. أوروبا كـانت قد صحت وبدأنا ننام وأصبحت ذاتنا ليست حتى الذات الإسلامية إنما هـى الـذات الإسلامية فى حالة إضمحلال وضمور وخاصة هذه الأيام. وكأن الأمـر يتطـلب إعادة صياغة لهذه الذات من جديد. لم يكن الخلاص من هذه المشكلة بغير ذات جديدة ومعايير جديدة وحياة جديدة.

لذلك قلنا أنه لا فائدة من تشجيع الفنانين وتشجيع الفن دون وجود نمط للحياة غـير مـريض: فإن مرض الحياة الفنية أو الثقافية ناشئ عن مرض العصر الذى نعيشـه. ولابد أن يشفى هذا العصر لكى تتغير الثقافة والحياة ولابد لكى تتغير الثقافة والحياة من تغير الفن فالتغيير المطلوب متبادل.

مطـلوب نوعيـة جديـدة مـن وحدة الفكر والعمل والعقل والبصيرة والحس الرهيف. الأمر يتطلب أن نعيش أزمة العصر وأزمة البلاد وأزمة البشر. هذا هو الإنسان الذى يعيش مع التاريخ ويتوحد مع التاريخ.

كان الأمر يتطلب الدقة فى هذه المعايشة والحيدة أمام الإتجاهات المتضاربة والعزلة

أمـــام الأمـــر الواقـــع والرأى الشائع ونقيض الرأى الشائع. فقد تكون المعارضة والســـلطة خطأهما الاثنين. وقد يكونا بعيدين عن جوهر الموضوع. هنا لابد أن أكون فى حصانة من الرأى الشائع والرأى المضاد للرأى الشائع.

كـــان إتساع الوعى واستمرار البحث قد صارا منهجا وطريقا لا نخرج عنه ولا نكوص فيه. لا حياة دون توسيع للوعى باستمرار والبحث ليس هو البحوث التى تقـــدم لنيل درجات الماجستير أو الدكتوراه إنما البحث بمعنى البحث عن الذات الجديدة التى لابد لها أن تتجدد باستمرار.

هكـــذا هى العملية أن نتحرك على المحاور الثلاثة السابق الإشارة إليها ولا ننسى المحور الرابع وهو التفرغ:

نعيش أزمتنا وأزمة العصر وأزمة البلد وأزمة البشرية.
ونتيجة لهذه المعايشة وبداخلنا قطعة من روح الحياة الأساسية
يوجد أمل التغيير المطلوب

ولكـــنا لا نفعـــل. لا شـــجاعة عندنا للنظرة الشمولية: فالفنان قابع داخل فنه.. والسياســـى مع الأمور السياسية ولا شأن له بالثقافة.. ورجل الدين داخل معبده ولا شـــأن له بهذا أو ذاك. بينما الإنسان يتطلب كل هذه. كلها ضرورى. كل هذه الاختصاصات المختلفة لابد أن تكون خبرة معاشة ومعاناة مستمرة بلا رغبة فى مخـــدر، فمـــن الجائز – إذا تأزمت الحياة – أن يبحث الإنسان عن مخدر لكى يستريح. أو أن يلجأ إلى حلول جاهزة متاحة لأوهام زائفة يتشدد لها. كان هذا كله أمرا ضروريا ليقظة الوعى الجديد لكى تتطور الذات الجديدة.. لكى تتحقق الحـــرية الـــتى لا تتحقق إلا بممارسة الخلاقية من صميم نفس واعية: أى وجود شخصية.

الإتقان تحرير للذات وإبراء للذمة وتحقيق لحركة التاريخ.

إذن ماذا يعنى الإتقان؟

إذا وجد لدىّ الوعى الجديد أدركت قيما جديدة، صحيح أنها نفحة من الأعماق إلا أنهـــا هى التى شكلت مثاليتى الجديدة فى عملى الفنى. ماذا أعمل؟ أحاول أن

أثـــبت هــــذه القيم فى عملى لأن العمل الحى يثبت قيم العامل فإذا كان العامل متخـــلفا كان العمل متخلفا وإذا كان العامل صاحب وعى جديد سيكون قلب عمله شاهدا على هذا الوعى الجديد.

لذلك نقول أن الإتقان هو الدقة فى تحقيق القيم الجديدة للوعى الجديد فى العمل

الحيــــاة نعمــــة ومســــئولية والحياة البشرية أمانة مهداه فالإنسان ليس قطة تعيش بالرضــــا عن الذات، إنما جوهر البشرية هو الوعى ونمو الوعى والوصول به إلى مــــراحل النضــــج حملا للأمانة ومسئوليتها. حين يعمل الإنسان مختارا وغير قادر على عمل شئ فهو غير مقتنع بما يعمل لأنه لا يجد صورة فى المنتج ترضيه - وهو يحــــاول أن يغير من العمل حتى يرتفع مستوى المنجز لمستوى الوعى الذى وصل إليه.

فالإتقان دليل الوعى: تريد أن تعرف درجة وعيك وإلى أين وصل؟ انظر مراحل إتقانك لعملك. والنمو فى هذا الإتقان تربية لك والوصول بها إلى مراحل النضج تحريرا للذات البشرية الجديدة كلها، على مستوى العالم، وليس فى مصر فقط.

ما هى الأزمة الحقيقية؟

الأزمة باختصار هى أن العلم والتقنية جعلا من العالم حقيقة هى أن العالم واحد ولكــــن الدول والشعوب تتصرف كما لو كان كل دولة وحدها ولا غيرها وأن العــــالم عالمها وتتصرف من أفق فردية منعزلة عن الواقع الذى أصبح من العسير تجاهله.

فالمطــــلوب شخصية جديدة.. وعى جديد للبشرية، يدرك حين يتصرف أن العالم واحــــد اليوم ولا يمكن لأوروبا وحدها أن تعيش ولا لأمريكا وحدها أن تعيش ولا للاثــــنين فقط أن يعيشا دون بقية العالم لأن العالم ملك الكل وللكل ولابد للوعى الجديد أن يتصرّف من هذا الأفق الذى يضاهى وعينا الجديد. ولكن هل ممكــــن؟ ليــــس ســــهلا لابد من المعاناة وإلى متى ستظل؟ الله أعلم. ولكننا كلنا

مسئولون فى حل المشكل عن طريق وجود ضمير لدينا ودرجات من الوعى ننمو فيها وننميها عن طريق إتقان عملنا باستمرار لأن الإتقان دليل الوعى

والنمو فيه تربية له

والوصول إلى مراحل النضج

تحرير للذات البشرية الجديدة

وإبراء لذمتها وإرضاء لأمانتها

والحياة أمانة.. والإتقان شهادة ميلاد وعى جديد:

حين وُجد سيد درويش.. وحين وُجد محمود مختار كانت شهادة على ميلاد إنسان مصرى جديد.. وعى جديد وُلد على مستوى الموسيقى، وعلى مستوى النحت.

وأيام ثورة عرابى حين وُجد سامى البارودى وُجد الوعى الجديد على المستوى العسكرى فى الثورة، وعلى المستوى الأدبى فى البارودى.. ولولا إتقان البارودى ما كان إتقان شوقى. أما وعى العسكرية المصرية أيام ثورة عرابى فهى بدورها تكملة لوعى السيد عمر مكرم أيام الحملة الفرنسية: حين تسلم الأمر محمد على وجد المصريون أن المماليك لم يتمكنوا من عمل شئ أمام الفرنسيين، فقام الشعب المصرى بمسئوليته. ثم جاء الانجليز واستمرت المعركة مع الانجليز. فى نفس الوقت استمر البارودى وشوقى وعمر مكرم وعرابى ومصطفى كامل. وجاءت ثورة ١٩١٩ وبدأت دائرة الوعى تتسع نتيجة المراحل المختلفة للنهضة التى قام بها محمد على حين أرسل البعثات إلى الخارج كعلى مبارك والفلكى ومحمد عبده وغيرهم. كل هذا نمو وعى يعلن ميلاد وعى جديد وفرد جديد. ونأمل إن شاء الله أن يكون عصرا جديدا.

عندما يخفت نور هذا الوعى يتوارى الإتقان وتتداعى أركان الذات وتنهار كما حدث مرارا عبر التاريخ.

الإتقان ليس عملا آليا.. ليس هو الرسم أو العمل الذى تبين فيه الدقة الآلية السائدة.

الإتقان عروج معنوى
الإتقـــان الذى نتطلبه يتطلب التوحد مع منطق الخلق الطبيعى ومنطق
التاريخ وجوهر الوجود.
مطلب عزيز المنال، ولكنه المدرس الحقيقى للحياة.

الفصل السابع

حديث إلى الرئيس فى أربع كلمات

الكلمة الأولى عن "المصرية مسئولية"

نعتقد – نحن أصدقاء الفن والحياة – أن على مصر دورا تقوم به تجاه العالم المعاصر؛ ليس العالم العربي وحده.. وليس العالم الإسلامى عامة.. ولكن نحو العالم المعاصر كله: المتقدم فيه والمتخلف على حد سواء.

ذلك أن العالم المتحضر المتقدم صاحب العلم الرائع، والتقنية المذهلة، يفتقد أكثر ما يفتقد فيتامين الحياة السوية.

يفتقد هذا العالم المتقدم الإيمان والميزان:

الإيمان بالحق.. والميزان العدل.

وقد كانت مصر صاحبة ميزان الحق والعدل.

كان ذلك فى العصور القديمة المسماة بالفرعونية.
وكان الأمر كذلك فى العصور الوسيطة: عصور المسيحية والإسلام.
وعليها أن تكون رائدة لذلك الشأن فى العصور القادمة بإذن الله.

وهذا لا يكون بغير إعادة بناء الشخصية المصرية العتيدة والمجيدة؛ بأن تدرك البلاد وحدة تاريخها قديمة ووسيطة.
وتدرك أنها وإن كانت اليوم تحاول أن تلحق بالعالم المتقدم إقتصاديا وحربيا، إلا أن عليها أن تدرك أيضا أن هذا العالم منهار أخلاقيا وإيمانيا.. وأنها بحكم عمق تاريخها ووحدته لديها طاقة معنوية قادرة ومهدرة، وأن هذه الطاقة هى أكبر عون وضمان لنجاح نهضتها الإقتصادية المرجوة.

وأن هــذه النهضــة المستحقة لهذه البلاد صاحبة هذا التاريخ، لابد لنجاحها من صــحوة تحقق بها ذاتها المضمرة، وتفجر طاقاتها الخلاقة المهدرة إذا أحكمت بناء إنسانها أصيلا ومعاصرا.

وهــذا على وجه التحديد ما نتوجه به إليكم وأنتم أصحاب رؤية شاملة. ونأمل أن يشمل هذا الشمول الجانب المعنوى فى الحياة، لأن الحياة الرغدة وحدها – إذا فقدت فيتامينها – إنحلت عقدة كيانها.

لابــد أن يــدرك العــالم المعاصــر – كل العالم المعاصر – أنه وقد وحّده العلم ووحّدتــه التقــنية، إلا أن الكارثة تترقب الجميع ما لم يتنبّه البشر إلى أن ميزان معنويات الإنسان قد اختل..

وأن الإنسانية إنسان واحد..

وأن الكون كون واحد..

وأن الحق واحد.

وهذا ما نؤمن به – نحن أصدقاء الفن والحياة. إن مصر قادرة أن تكونه وأن تعلنه وتدعو إليه. وأن آثار تاريخها القائمة – إذا استقامت رؤيتها بصيريا – تدعو إليه.

إن إعــادة بناء الشخصية المصرية المؤمنة أصيلة ومعاصرة هو سند هذه الدعوة، وضمان تحقيق النهضة الإقتصادية والمعنوية على حد سواء.

ونحن لا نلقى هذا القول جزافا..

بل لدينا الفكر ثمرة عشرات السنين.

والأعمال التى اشترك فيها عشرات الباحثين المنتجين.

لديــنا الفكــر مسّــجل فى مئات الساعات والممكن إذاعته على أوسع نطاق: تلفزيونيا وإذاعيا وصحفيا وبغير ذلك من الوسائل الرائعة المتاحة.

وقد صدر من هذا الفكر مرفوعا ومطبوعا عدة كتب تتناول:

١. الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية:
وقـــد صدر ونفذت الطبعة الأولى منه. وهو يحتوى على مجموعة أحاديث ألقيت عـــام ٦٩-٧٠ إبان النكسة فى الجمعية الجغرافية ونُشر فى الذكرى الأولى للعبور المجيد.
وفى الباب الأخير منه مشروع خاص بثقافة الطفل ينتظر التنفيذ.

٢.المعنى الثقافى للثورة :
وهو يشرح حاجة البلاد العربية إلى نهضة ثقافية لم تتحقق بعد. ولأنها لم تتحقق ما زالت البلاد العربية على ما هى عليه مما هو واضح لا يحتاج إلى بيان.
إن الثورة مهما كانت سياسية أو اقتصادية أو عسكرية ما لم يكن عمادها الثقافى هو المنطلق الأساسى فمصيرها معروف يشهد عليه تاريخ الثورات على المستوى البشرى.
"وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

٣. كتاب الفكرة المصرية فى الفن
٤. كتاب الفن فى مصر عبر العصور الشخصية المتميزة
٥. كتاب أساسيات الشخصية المصرية
ثـــلاث كـــتب كـــانت ترقد فى الهيئة العامة للكتاب منذ عام ١٩٨٥ وتتناول التصـــحيحات المطـــلوبة لـــلخلاص من التبعية الثقافية لهذا البلد صاحب أقدم شخصية لها استمرارية عبر آلاف السنين ومعبّر عنها عيانا وبيانا فيما نسميه آثار .. وهى فى حقيقتها قلب مصر الحى النابض الذى لا يموت.
وقـــد صدر منها كتاب "الفكرة المصرية فى الفن" عام ١٩٩٦ فى مكتبة الأسرة وقد نفذ فور صدوره ومن غير المتيسر الآن الحصول على نسخة منه
وصدر كتاب أساسيات الشخصية المصرية عام ١٩٩٧ ولا يزال كتاب "الفن فى مصر عبر العصور الشخصية المتميزة" قابعا فى الهيئة العامة للكتاب حتى الآن و لم يصدر بعد.

وغير هذه الكتب كتب أخرى منشورة أذكر منها أربعة، تناولت موضوعا واحدا هو:
الكيفية التى يمكن بها إعادة بناء الشخصية المصرية.
الأول: عن كيفية بناء الإنسان والطفل.
والثانى: عن كيفية بناء الإنسان والتعليم.
والثالث: عن كيفية بناء الإنسان والبيت.
والرابع: عن كيفية الإتقان فى بناء الإنسان.

وبعـــد.. فـــإن الأمل عظيم أن يتم على أيديكم تيسير تدعيم النهضة الاقتصادية بالنهضة الثقافية المرجوة لإعادة بناء الشخصية المصرية، لتعاود مصر عطاءها من جديـــد.. وتقوم بما يفرضه عليها تاريخها من الإسهام فى درء الخطر الذى يتهدد البشرية من اختلال ميزان الحياة السوية للجميع.
لا يحول دون هذا أن البلاد ليست غنية، وليست ذات قوة نووية عسكرية: لأن الحق فوق القوة.. والإيمان الحق فوق الطغيان.. والعدل صنو الحق.

ولدينا مزيد من الفكر الأصيل الذى يشرح المكنون والمضمون لمعطيات الفنون فى المـــتحف المصـــرى.. والمـــتحف القبطى.. والمتحف الإسلامى.. ومدينة القاهرة الأصيلة، أكبر متحف مفتوح للفنون الإسلامية.
ا. وربمـــا كان من المناسب البدء بنشر هذا الفكر المسجل والكاشف لما فى هذه المـــتاحف العظيمة، وبيان أهميتها لإعادة بناء الشخصية المصرية لتواصل عطاءها الجديد.
ب. وأن يدعّـــم ذلـــك بفيلم يشرح الشخصية المتميزة عيانا بيانا للناس أجمعين ووحدة الفن فى مصر عبر العصور.
ج. كمـــا نقـــترح أن يقام عرض لأعمال أصدقاء الفن والحياة، وذلك لتدعيم الدعـــوة إلى هذا الإحياء بالقدوة والمثال العملى والمنهجى التى يتحقق بها إثبات إمكانيـــة البناء. وقد كان هذا قائما لما يقرب من عشر سنوات بقصر المانسترلى.

ومطبوع "وظيفة الفن؟ شرح دقيق لما كان ولما ينبغى أن يكون.

د. تحقيــق الأمل فيما يدعو إليه "بيت الفن والحياة" بيتنا الذى أهديناه إلى الدولة فى صورة محافظة القاهرة.

هـــــ. وأخيرا وليس آخرا. نشر مجموعة من تصميمات المنسوجات يلمس فيها الجميــع فى الداخــل والخارج أن الشخصية المصرية ليست وهما وحلما ولكنها حقيقــة ملموسة.. ولدينا من هذه التصميمات الكثير والمطلوب أن يتم الوعى بها والعمل على نمائها.

الكلمة الثانية: عن "دعوة مصر"

ربما كانت رسالة مصر الأولى فى السعى الحضارى العالمى تتلخص فى رؤية معنى الموت.. والحياة.. والعمل.

ومـــا زال هذا الدرس الأول والأخير يلقى على الواعين من المطلعين على تراثها القديم أن:

الموت ليس نهاية بل بداية

والحياة ممر وامتحان

والعمل هو المخلّص

حُصِّلت هذه الرؤية عن طريق تأمل الحياة والموت وإدراك الوحدة الشاملة. ينبثق من هذا التأمل وعى بالقداسة يدعو إليه مراقبة ومحاسبة وارتفاع فوق الأحداث، يساعد عليه نصوع الرؤية، يتبعه مزيد من سكينة ومزيد من تأييد و.. إشراق.

كـــان العمـــل الجماعى على مستوى الأفراد والأجيال. كما كانت مراعاة القانون الأخلاقى فى الداخل النفسى، والخارج الجماعى، كما كان إحترام سائر الخلق الكونى، وعشق الإتقان المتفانى فى العمل، تأييدا وتدعيما لنصاعة الرؤية.

دافعان أساسيان لم يُطمسا فى تجربة مصر الحضارية الأولى:

حـــب الطـــبيعة.. وحـــب التجويد. ساعد على تدعيمها عاملان: حب التأمل.. والإعتزاز بالقديم.

أثمـــرت هذه الجوانب الأربعة استدعاء واردات التقديس، ونصوع شفافية الواقع عن الماوراء.

شُغفت النفس المصرية بالماوراء.. ولكنها تمسكت بالواقع..

أيـــدت هذه السمات، وتأيدت بالطبيعة الجغرافية للبلاد. وما زالت هذه الطبيعة الجغـــرافية تبث فى القلب الواعى مزيدا من الوعى بالمقدس. وهذا هو راد النفس المصرية فى القدرة على الارتفاع فوق الأحداث.

تحـــارب موضات وانحرافات العصر بزوغ الأمل فى هذه البلاد: تحارب التقاليد.. تحـــارب التأمل.. تحارب الدين.. كما تحارب المفهوم الأساسى للعمل، وتطمس الدافع الخفى والقوى فى أعماق النفس البشرية من التطلع إلى المطلق.

ولا يشفى غليل النفس البشرية إلا هذا المطلق.

والطريق إلى إنعاش وإحياء وتقوية هذا التروع الجوهرى هو تلمُّس جدور عظمة الماضى.. والتمسك بجذور إيجابيات العصر. ويتميز العصر بوعى عالمى وإن كان غير قادر على استيعاب هذا العطاء.

ومـــا زالت تجارب البشرية فى سعيها الحضارى دروسا غير مدروسة، وما زالت آثار تلك العصور غير مكشوفة للبصائر، ولو أنها كانت كذلك لتبيّن للناس أهمية الوعى بالمقدس ولتبيّن لهم معنى الإنسان

لـــو أن تراث البشرية على المستوى العالمى كان مدروسا بالبصر والبصيرة لأدرك الإنسان المعاصر حدود العصر.

لو أن تراث الهند والصين والعالم القديم كان مستوعبا لأدرك الإنسان المعاصر فقر العصر الروحى.

لـــو أن الوعـــى العالمى وعطاءه الحضارى كان مستوعبا لخفف ذلك من غلوائه وربما كانت بداية الهداية.

يحـــتاج الإنســـان فى الوضع الجديد للعالم – وضع تحقيق الوحدة على المستوى

المادى بفضل العلم والتقنية - إلى رؤية جديدة يدرك فيها الإنسان وحدة الحياة، ووحدة البشرية، ومقام الإنسان فى الوجود.

يحتاج إلى رؤية جديدة تتكشف فيها الحقائق فى معنى الحضارة، ومعنى الحياة، ومعنى الدين.. ويتركز فيها تأكيد الروابط المشتركة فى تراث الإنسان بدلا عن تأكيد الإختلافات.

وربما كانت فنون التشكيل من مقومات هذه الرؤية حيث توجد وحدة بين التشكيل من صنع الله مع التشكيل من صنع الإنسان.

وفقه هذا التشكيل، وفقه الحياة، وفقه العمل سر الرؤية المرجوّة.

الكلمة الثالثة عن "المعنى الأساسي لوجود الإنسان".

يعتبر أصدقاء الفن والحياة أن الفن فى مصر عبر العصور هو التاريخ الأجدر بالعناية لهذا البلد. وما يسجله هذا التاريخ يختلف عما يسجله التاريخ بمعناه المألوف: تاريخ المؤرخين يعنى بالأحداث. والتاريخ الذى يسجله الفن فى مصر عبر العصور هو تاريخ القلب المصرى عبر العصور.
ونحن فى حاجة إلى عطاء كل من التاريخين. ولكن إهمالنا لأحوال القلب يحد من سلامة إدراكنا لفحوى التاريخ: ما يرصده الفن يجعلنا على اتصال مباشر بوجدان الناس. وبينما يجوز أن يكذب التاريخ المألوف، لا يمكن أن يكذب ما يرصده الفن من تاريخ القلب عبر العصور فى هذا المكان من قبل أن يبدأ التاريخ وإلى اليوم.

فى قُدرة الأهرام، وأبو الهول وما نسميه مركب الشمس أن يطلعونا على ذلك الوجدان الذى جاش فى قلوب الناس أصدق وأتم مما يمكن للتاريخ المألوف أن يطلعنا عليه من موقف تجاه الوجود ومن طموح وتحليق وتحقيق.
فى حضرة هذه المنجزات يحسن ألاّ نسمح لكلمات التاريخ المألوف أن تحجب عنا رؤية القلب الذى يعمر هذه المنجزات: فالقالب الفنى هو فحوى قلب الإنسان.

وليست خبريات العمل الفنى هى أهم ما يعطيه العمل الفنى، ولكن كيفية بنائه هى التى تبوح بأسرار القلب البشرى. أسلوب العمل مرآة قلب العامل. الأسلوب وكيفية البناء وليس الخبريات هى التى تنطق الصدق الصراح. ولأننا منحازون إلى

معطيات الذهن فإننا كثيرا ما نُحرم معطيات الوجدان يؤمئ بها الأسلوب ويجلّيها للقلب الودود.

لم يكن السعى الحضارى فى هذا المكان فى العصور القديمة أو الوسيطة همّه الأول معطيات الذهن، ولكن السمو بوجدان الإنسان هو الهمّ الأول لوجدان تلك العصور. لا غنى عن الذهن ولكننا نفقد إنسانيتنا عندما لا نعنى بتنمية الوجدان.
"الإنسان المعاصر يبحث له عن قلب" عنوان كتاب لأحد أكابر علماء النفس المعاصرين "يونج" نقد نفّاذ للعصر.
لا غنى عن معطيات الذهن، والعلم المعاصر.. والتقنية المعاصرة إنجازات رائعة رهيبة. ولكن الإنسان ما زال بلا قلب.
العقلانية وحدها إنجاز، وعَرَض لمرض إنحلال ثقافة الإنسان. واللاعقل ليس هو الحل.

ومجال البصيرة الفن: الفن الكبير وليس الفن الضليل الصغير. فنون البشرية الكبرى فلسفات فوق ذهنية.. حكمة مرئية. وفلسفات الذهن - مهما سمت - لا تطاول هاماتها هامات الفنون الكبرى. "نحن فى حاجة إلى فقه معنى المعنى" عنوان لكتاب معاصر آخر يحتاج إلى مراجعة.

لهذا يعتبر أصدقاء الفن والحياة أن "الفن فى مصر عبر العصور" هو التاريخ الأجدر بالدرس لدى المعنيين بالقيمة والمعنى؛ لأنه يحتوى بصائر القلب المصرى عبر مدارج التاريخ:
تنطق البلطة الظرانية الممتازة فى العصور الحجرية القديمة بأن الوجدان البشرى قد بدأ يجاوز ظلام العماء ليتخلّق نظام الكيان فى قلب الإنسان: ظهر برعم أولّى فى هيئة شكل مشحون بمعنى وجدانى. وفى أوانى العصر الحجرى الحديث أزهر البرعم، ونمت المعانى الوجدانية فى قلب الإنسان، وتجسدت فى صور أوانى منوعة البناء وحفلت كل هيئة إنائية ممتازة بإدراك حصيف فى عالم القيمة الوجدانى.

وتتوالى الهيئات المشحونة برهائف القيم الوجدانية فى صورة إناء أو أداة، وتتسامى قمم وتُرى فى صورة التراكيب دلائل نمو الوعى القلبى بقيم الحياة، وتشرق فى الأفق البشرى تعليقات على الحياة وتكاملات لحصاد القيم، وتتدفق الحياة البشرية بخصائصها الغير حيوانية.

ورويدا رويدا يظهر الوعى الخلاق للقيمة: تظهر شخصية الإنسان:

ما يصنعه الإنسان يشف عن ضمير الإنسان

عن قلبه ووجدانه.. عن معنى وجوده..

وعن رفعة ذلك المعنى أو تفاهته..

أو غياب المعنى وضآلة الحياة..

أو عن خشونتها وقسوتها

أو عن رقتها وسمو روحانيتها

ما يصنعه الإنسان يسمو بالإنسان أو يهبط به.

وما صنعته هذه البلاد عبر العصور مما نسميه آثار يشهد بأنها كشفت لحياة الإنسان المعنى. وحققت درجات تصعيد المعنى. ورصدت من القيم - فيما حققت من أعمال - رؤى فيها رفاهة ورهافة وعظمة وجلال ودقة وجمال ورفعة وكمال وتعاطف مع صور الحياة على اختلافها من جماد ونبات وحيوان.. واقتدار على جمع الناس.. ألوف الناس على قلب واحد يرفع جلائل الأعمال الكبار ودقائقها

مما له فاعلية السحر فى إعادة تشكيل وجدان المتلقى بوجدان نظير

حققت شرحا شائقا لمعنى من معانى الحضارة:

المعنى الأساسى لوجود الإنسان.

الكلمة الرابعة عن
"أهمية دعوة أصدقاء الفن والحياة للداخل والخارج"

تتلخص أهمية هذه الدعوة للداخل والخارج فى أنها دعوة إلى سلوك الطريق نحو الإيمان؛ ذلك أن الإنسانية بلا إيمان إنسانية ضالة تتقاذفها الأهواء. وهذا هو الواقع اليوم.

ولا تطلب هذه الدعوة من أحد أن يتنكر لدينه، بل أن يتقن هذا الإيمان بمنهجية وموضوعية.

وتعتمد هذه الدعوة على دعائم ثلاث:

الأولى: أن العلم يؤمن بوحدة الحياة.

الثانية: أن العلم يؤمن بوحدة الإنسان.

والأخيرة: أن المتصوفة من شتى الأرجاء تؤمن بوحدة الحق.

كما تشير هذه الدعوة إلى الوعى بأن القيمة غير متمتعة باهتمام العصر اللّهم إلا بقيمة الثراء وقيمة القوة وقيمة صحة البدن. وتتحلّى إيمانات البشر على مدى التاريخ بحفل رائع من القيم التى تجعل الحياة البشرية ذات معنى..
وأن الفن على مدى التاريخ هو مجلى هذه القيم.
وأن الفن المعاصر دليل على ضحالة إدراك القيمة فى هذا العصر.

وتنّبه هذه الدعوة إلى أن صورة الإنسان كما يقدمها العصر عن طريق علم

النفس لا تفى بإنصاف الإنسان بل هى تظلم الإنسان؛ لأنها تتغافل عن أهمية الإيمان وأهمية العلم بشقيه وأهمية دلالة الفن.

ولا تعتمد هذه الدعوة على التغافل عن سيئات البشرية عبر العصور ولكنها لا تتغافل عن الإنجازات العظيمة للبشرية عبر العصور. وتدعو إلى عدم التنكر للحس أو للذهن أو للبصيرة بل تدعو إلى تكامل الحس والذهن والبصيرة.

وأخيرا وليس آخرا تعتبر هذه الدعوة أن الكون هو كتاب لكل الناس ولابد أن يُقرأ بمساعدة الخبرات البشرية كلها وبكل قدرات الإنسان.

ولا تنطلق هذه الدعوة من وهم أو فراغ، لكنها تنطلق من خبرة هذا البلد كما يرويها التاريخ المرئى: أى كما ترويها الآثار.. لهذا كانت أهمية الدعوة للداخل من أهل البلاد ولضيوف البلد الوافدين إليها من الخارج.

ولكن النظر إلى هذه الآثار، والتعرف على تاريخ هذا البلد القديم فى حاجة إلى تصويبات لأفكار سطحية وشائعة. لهذا تهدر قيمة هذه التجربة البشرية التى امتدت من العصر الحجرى الحديث وما زالت مستمرة إلى اليوم.

ومن أهم التصويبات اللازمة لعدم إهدار قيمة هذه التجربة التنبه إلى وحدة حلقات تاريخ هذا البلد، وعدم الإقتناع بأنها منفصلة بعضها عن بعض كما هو شائع.

كما أن النظرة السائدة عن فنون هذا البلد باعتبارها آثار تُزار ويمر عليها مر الكرام، من الأسباب التى تهدر قيمة هذه التجربة الإنسانية، وتتلخص فحوى هذه التجربة - إذا أدركت الإدراك الصحيح - فى أنها شهادة رأى العين للكيفية التى يخرج بها - وقد خرج بها بالفعل - شعب من شعوب الأرض من البدائية الأولى والهمجية إلى رحاب الحضارة.. ونور الإيمان بمعانيها الأساسية. وقد تغيب هذه المعانى الأساسية عن وعى بعض الناس، أو أكثر الناس وتحل محلها معانى سطحية أشمل ذيوعا.

وتتركز القيمة الأساسية لهذه المعانى الأساسية فى أنها تجارب نفسية يقينية تحققت وأُدركـــت بالتأمل والمعاناة الذاتية. وليس من الضرورى لهذه المعانى الأساسية أن تســـعها الكلمات وحدها بل إن هذه المعانى الأساسية موجودة فى صنع الله الذى أبدع وأحسن وأتقن كل شئ.

ولغة التشكيل الطبيعى ناطقة بأفصح بيان للعيان.. ولكن كما يقول الصوفى:

وأى الأرض يخلو منـــك حتى | تعالّوا يطلبونك فى السماء
تراهم ينظرون إليك جهرا | وهم لا يبصرون من العمـــاء

وهنا تبرز أهمية فنون التشكيل، فإنها الواسطة بين البيان الفصيح وقلب الإنسان، لأنها حصاد رؤية رائدة لقلب متفتح صدّق عمله ما وقر فى قلبه

وجوهـــر المعنى فى آثار مصر عبر عصورها، وفحوى تاريخها هو هذا الخروج من البدائية إلى رحاب الحضارة وجوهرها الإيمان.
وليســـت فنون مصر وحدها هى صاحبة الشهادة، ولكن فنون البشرية العظيمة كلها تشهد شهادة واحدة وتدل على حقائق واحدة. ولكن تمتاز فنون مصر فى تماســـك حلقاتها حلقة حلقة من البدائية الأولى وعبر الحلقات المتتابعة بأنها تصف لوجـــدان الإنســـان المتفتح ذخر خبرات البشرية من المعانى الأساسية للحضارة.. والإيمان جوهرها الرئيسى.

الدعـــوة إلى الإيمان التى يدعو إليها أصدقاء الفن والحياة ليست تبشيرا بدين معين ولكـــنها دعـــوة للدرس والبحث فى المعانى الأساسية لحياة الإنسان يحتاجها كل مصـــرى حـــتى لا يضـــل عن هويته. ويحتاجها كل إنسان حتى يدرك مسئوليته كإنســـان عـــن الحياة كل الحياة.. والناس كل الناس.. وذاته الشخصية أولا وفى الأساس.

رقم الإيداع ٤٢٢٦ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي ISBN